سلسلة سبيل الرشاد

كتاب التيسير
في
أدب الصغير والكبير

لبليغ العرب عبد الله بن المقفَّع
(142-106 هـ)

إعـداد

د. الشيخ نزار خالد الخزندار

كتاب التيسير في أدب الصغير والكبير

لبليغ العرب عبد الله بن المقَفَّع (١٠٦-١٤٢ هـ)

ترتيب | د. الشيخ نزار بن خالد الخزندار

حقوق الطبع غير محفوظة لمن لا يبتغي الربح المادي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قال عبد الله بن المقَفَّع: إنا وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظمَ أجساماً وأوفرَ مع أجسامهم أحلاماً، وأشد قوةً وأحسنَ بقوتهم للأمورِ إتقاناً، وأطول أعماراً وأفضل بأعمارهم للأشياء اختباراً.

فكان صاحبُ الدِّين منهمُ أبلغَ في أمر الدِّينِ علماً وعملاً من صاحبِ الدِّين منا، وكان صاحبُ الدنيا على مثلِ ذلك من البلاغةِ والفضلِ.

ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضلِ الذي قُسم لأنفسهم حتى أشركونا معهم فيما أدركوا من علمِ الأولى والآخرةِ فكتبوا به الكتبَ الباقية، وضربوا الأمثالَ الشافيةَ، وكفَوْنا به مؤونة التجاربِ.

وبلغَ من اهتمامهم بذلكَ أن الرجلَ منهم كان يُفتحُ له البابُ من العلم أو الكلمةُ من الصوابِ وهو في البلد غير المأهولِ فيكتبهُ على الصخورِ مبادرةً للأجلِ وكراهية منهُ أن يسقط ذلك عمَّن بعدهُ.

فكان صنيعهم في ذلك صنيعَ الوالدِ الشفيقِ على ولدهِ، الرحيمِ البرِّ بهم، الذي يجمعُ لهمُ الأموال والضياع إرادة ألا تكونَ عليهم مؤونةٌ في الطلبِ، وخشيةَ عجزهم إن هم طلبوا.

فمنتهى علمِ عالمِنا في هذا الزمانِ أن **يأخذ من علمهم**، وغايةُ إحسانِ مُحسِنِنا أن **يقتدي بسيرتهم**. وأحسنُ ما يُصيبُ من الحديث مُحدثنا أن ينظر في كتبهم فيكونَ كأنه إياهم يحاورُ، ومنهم يستمعُ، وآثارَهم يتبع.

غير أن الذي نجد في كتبهم هو المنتَخَل من آرائهم والمنتَقى من أحاديثهم. ولم نجدهم غادروا شيئاً يجدُ واصفٌ بليغٌ في صفةٍ له مقالاً لم يسبقوهُ إليه: لا في تعظيم للهِ ﷻ، وترغيبٍ فيما عندهُ، ولا في تصغيرٍ للدنيا وتزهيد فيها، ولا في تحرير صنوف العلمِ وتقسيمِ أقسامها وتجزئةِ أجزائها وتوضيحِ سُبلها وتبيينِ مآخذها، ولا في وجهٍ من وجوهِ الأدبِ وضروبِ الأخلاقِ. **فلم يبق في جليلِ الأمر ولا صغيرهِ لقائلٍ بعدهم مقالٌ.**

وقد بقيت أشياءُ من **لطائفِ الأمورِ** فيها مواضعُ لصغارِ الفهم، مشتقةٌ من جسام حِكمِ الأولينَ وقَولهم، فمن ذلك بعضُ ما أنا كاتبٌ في كتابي هذا من أبوابِ الأدبِ التي **يحتاجُ** إليها الناسُ.

وقد بلغ فضل الله على الناس من السعة وبلغت نعمتهُ عليهم من التمام ما لو أنّ أخسَّهم حظاً وأقلهم منهُ نصيباً وأضعفَهم علماً وأعجزهم عملاً وأعياهم لساناً بلغ من الشكر له والثناء عليه بما خلص إليه من فضله، ووصل إليه من نعمته، ما بلغ لهُ منه أعظمهم حظاً وأوفرهم نصيباً وأفضلهم علماً وأقواهم عملاً وأبسطهم لساناً، لكان عمَّا استوجب الله عليه مقصراً وعن بلوغِ غايةِ الشكر بعيداً.

ومن أخذ بحظه من شكر الله وحمده ومعرفة نعمهِ والثناء عليه والتحميد لهُ، فقد استوجب بذلك من أدائه إلى الله القُربة عندهُ والوسيلةَ إليه والمزيد فيما شكرهُ عليه من خير الدنيا، وحسن ثوابِ الآخرة.

والدينُ أفضل المواهبِ التي وصلت من الله إلى خلقهِ، وأعظمها منفعةً، وأحمَدُها في كل حكمةٍ، فقد بلغ فضل الدِّين والحكمة أن مُدحا على ألسنةِ الجهَّال على جهالتهم بهما وعماهُم عنهما.

ولا يثبتُ دين المرء على حالةٍ واحدةٍ أبداً، ولكنهُ لا يزالُ إما زائداً وإما ناقصاً.

أما بعد، فإن لكل مخلوقٍ حاجةً، ولكل حاجةٍ غايةً، ولكل غاية سبيلاً. والله وقت للأمُور أقدارها، وهيأ

alkhaznadarn67@gmail.com

إلى الغايات سبلها، وسبَّب الحاجات ببلاغها. **فغايةُ الناسِ وحاجاتهم صلاحُ المعاشِ والمعاد**، والسبيل إلى دركها العقل الصحيح. وأمارةُ صحةِ العقلِ اختيارُ الأمورِ بالبصرِ، وتنفيذُ البصرِ بالعزمِ.

والعلم زَينٌ لصاحبهِ في الرخاء، ومَنجاةٌ لهُ في الشدة. وبالأدب تعمُرُ القلوبُ، وبالعلمِ تُستحكَمُ الأحلامُ. وأفضلُ ما يُورثُ الآباءُ الأبناءَ الثناءُ الحسنُ والأدبُ النافعُ والإخوانُ الصالحون.

وأفضلُ ما يُعلم به علم ذي العلم وصلاحُ ذي الصلاح أن يستصلح بما أوتي من ذلك ما استطاع من الناس ويرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حب الله، وحب حكمته، والعمل بطاعته، والرجاء لحسنِ ثوابه في المعادِ إليه، وأن يُبيّنَ الذي لهم من الأخذ بذلك والذي عليهم في تركه، و أن يورِّث ذلك أهلهُ ومعارفهُ ليلحَقهُ أجرهُ من بعد الموتِ.

وقد وضعتُ في هذا الكتاب من كلام الناسِ المحفوظِ حروفاً فيها عونٌ على **عمارةِ القلوبِ وصِقالها وتجليةِ أبصارها، وإحياءٌ للتفكيرِ وإقامةٌ للتدبير، ودليلٌ على محامدِ الأمور ومكارمِ الأخلاقِ** إن شاء اللهُ.

القسم الأول
إدارة الذات

مَن نصبَ نفسهُ للناسِ إماماً في الدِّينِ، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطُّعمةِ والرأي واللفظ والأخدانِ، فيكون تعليمه بسيرته أبلغَ من تعليمه بلسانهِ. فإنه كما أن كلام الحكمةِ يونقُ الأسماعَ، فكذلكَ عملُ الحكمةِ يروقُ العيونَ والقلوبَ. ومعلمُ نفسَه ومؤدبها أحقُّ بالإجلالِ والتفضيلِ من معلمِ الناسِ ومؤدبهم.

وفضلُ العلمِ في غير الدِّينِ مَهلكةٌ، وكثرةُ الأدبِ في غيرِ رضوانِ الله ومنفعةِ الأخيارِ قائدٌ إلى النارِ.

والحفظُ الواعي لغيرِ العلمِ النافعِ مضرٌّ بالعملِ الصالحِ، والعقلُ غيرُ الوازعِ عن الذنوبِ خازنُ الشيطانِ. لا تؤدي التوبةُ أحداً إلى النار، ولا الإصرارُ على الذنوبِ أحداً إلى الجنةِ.

ومن أبوابِ التوفُّقِ والتوفيقِ في التعلُّمِ أن يكون وجهُ الرجلِ الذي يتوجهُ فيه من العلمِ والأدب فيما يوافقُ طاعةً، ويكونَ له عندهُ محملٌ وقبولٌ. فلا يذهبُ عناؤهُ في غير غَناءٍ، ولا تفنى أيامهُ في غير درْكٍ، ولا يستفرغُ نصيبهُ فيما لا ينجعُ فيه، ولا يكون كرجلٍ أرادَ أن يعمر أرضاً منخفضة فغرسها جوزاً ولوزاً، وأرضاً مرتفعة فغرسها نخلاً وموزاً.﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام ١٦٢).

استخدم عقلك

إنَّ الله تبارك وتعالى خلق الخلق برحمته، ومَنَّ على عباده بفضله وكرمه ورزقهم من العقل ما يقدرون به على إصلاح معايشهم في الدنيا، وما يدركون به استنقاذ أرواحهم من العذاب في الآخرة، وأفضل ما رزقهم الله تعالى ومَنَّ به عليهم العقل الذي هو الدعامة لجميع الأشياء، والذي لا يقدر أحدٌ في الدنيا على إصلاح معيشته ولا إحراز نفعٍ ولا دفع ضررٍ إلا بفيضه من الخالق المبدع الواحد الأحد.

وكذلك طالب الآخرة الزاهد المجتهد في العمل المنجي به نفسه من عماية الضلالة لا يقدر على إتمام عمله وإكماله ولا يتم ذلك إلا بالعقل الذي هو السبب الموصل إلى كل خير والمفتاح لكل سعادةٍ والمبلغ إلى دار الخلود فليس لأحد عنه غنى ولا بغيره اكتفاء. والعقل غريزي مطبوع ويتزايد بالتجارب والآداب. وغريزته مكنونةٌ في الإنسان كامنةٌ فيه كمون النار في الحجر والعود لا تظهر ولا

يرى ضوءها حتى يقدحها قادحٌ من غيرها، فإذا قدحها ظهرت بضوئها وحريقها.

وكذلك العقل كامن في الإنسان لا يظهر حتى يظهره الأدب وتعضده التجارب. فإذا استحكم كان هو السابق إلى الخير والدافع لكل ضر فلا شيء أفضل من العقل والأدب فمن منَّ عليه خالقه بالعقل وأعان على نفسه بالمثابرة على الأدب والحرص عليه سَعَد جده، وأدرك أمله في الدنيا والآخرة.

ابدأ بنفسك

أقل الناس عذراً في اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميَّزه وعرف فضل بعضه على بعض كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها، كانا إذا صارا جميعا في قاعها بمنزلةٍ واحدةٍ، غير أن البصير أقل عذراً عند الناس من الضرير: إذ كانت له عينان يبصر بهما، وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف.

وعلى العالم أن يبدأ بنفسه ويؤدبها بعلمه، ولا تكون غايته اقتناؤه العلم لمعاونة غيره، ويكون كالعين التي يشرب الناس ماءها وليس لها في ذلك شيءٌ من المنفعة، وكدودة القز التي تحكم صنعه ولا تنتفع به. فينبغي لمن طلب العلم أن يبدأ بعظة نفسه، ثم عليه بعد ذلك أن ينتفع به، فإن خلالاً ينبغي لصاحب الدنيا أن يقتنيها وينتفع بها: منها العلم والمال. ومنها اتخاذ المعروف.

وليس للعالم أن يعيب امرأً بشيءٍ فيه مثله، ويكون كالأعمى الذي يعَيّر الأعمى بعماه.

حبب العلم إلى نفسك

حبِّبْ إلى نفسك العلمَ حتى تلزمَهُ وتألفَهُ، ويكونَ هو لهوَكَ ولذَّتَكَ وسلوتَكَ وبُلغتَكَ.ولا تنس قوله تعالى:﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾(يوسف ٧٦). واعلم أنّ العلم علمانِ: علمٌ للمنافعِ، وعلم لِتَذكيةِ العقولِ.

وأفشى العلمينِ وأحراهُما أن ينشطَ لهُ صاحبهُ من غيرِ أن يُحَضَّ عليه علمُ المنافعِ. وللعلمِ الذي هو ذكاءُ العقولِ وصقالُها وجلاؤها فضيلةُ منزلةٍ عند أهلِ الفضيلةِ والألبابِ.

ولا يُعجبنَّكَ العالمُ ما لم يكن عالماً بمواضعِ ما يعلمُ، ولا العاملُ إذا جهِلَ موضعَ ما يعملُ. والورعُ لا يَخدَعُ، والأريبُ لا يُخدعُ. ومن ورعِ الرجلِ أن لا يقولَ ما لا يعلمُ، ومن الإربِ أن يتثبَّت فيما يعلمُ.

ومما يدلُ على علمِ العالمِ معرفتهُ ما يدركُ من الأمورِ، وإمساكه عما لا يدركُ، وتزيينهُ نفسهُ بالمكارم، وظهورُ علمهِ للناسِ من غير أن يظهر منهُ فخرٌ ولا عجبٌ، ومعرفتهُ زمانهُ الذي هو فيه، وبصرهُ بالناسِ، وأخذُهُ بالقِسطِ، وإرشادهُ المسترشد، وحسنُ مخالقتهِ خُلطاءهُ، وتسويتهُ بين قلبهِ ولسانهِ، وتحريه العدل في كل أمرٍ، ورحب ذرعه فيما نابهُ، واحتجاجهُ بالحججِ فيما عمل، وحسنُ تبصيرهِ.

وحياةُ الشيطان تركُ العلمِ، وروحهُ وجسدهُ الجهلُ، ومعدِنهُ في أهل الحقدِ والقساوةِ، ومثواهُ في أهل الغضبِ، وعيشهُ في المصارمةِ، ورجاؤهُ في الإصرار على الذنوبِ. ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(النور ٢١).

الحرص على ما ينفعك

وينبغي أن يكون حرص العاقل على ما طاب كسبه وحسُن نفعه، ولا يتعرض لما يجلب عليه العناء والشقاء، فيكون كالحمامة التي تفرخ الفراخ فتؤخذ وتذبح، ثم لا يمنعها ذلك أن تعود فتفرخ موضعها، وتقيم بمكانها فتؤخذ الثانية من فراخها فتذبح حتى تؤخذ هي أيضا فتذبح.

وقد يقال: إن الله تعالى قد جعل لكل شيءٍ حداً يوقف عليه. ومن تجاوز في أشياء حدها أوشك أن يلحقه التقصير عن بلوغها. ويقال: من كان سعيه لأخرته ودنياه فحياته له وعليه، ومن كان سعيه لدنياه خاصة فحياته عليه، ومن كان سعيه لآخرته فحياته له.

ويقال في ثلاثة أشياء يجب على صاحب الدنيا إصلاحها وبذل جهده فيها: منها أمر معيشته، ومنها ما بينه وبين الناس، ومنها ما يكسبه الذكر الجميل بعده.

وقد يقال في أمرين إنهما يجملان بكل أحدٍ: أحدهما النسك والآخر المال الحلال. وقد يقال في أمرين: إنهما لا يجملان بأحد: الحاكم أن يشارك في حكمه والرجل أن يشارك في زوجه. فالخلتان الأوليان مثلهما مثل النار التي تحرق كل حطب يقذف فيها، والخلتان الأخريان كالماء والبخار اللذين لا يمكن اجتماعهما.

لا تصدق كل ما تسمع

وقد قيل في أمورٍ مَن كن فيه لم يستقم له عملٌ: منها التواني، ومنها تضييع الفرص، ومنها التصديق لكل مخبرٍ، ومنها التكذيب لكل عارف. فرُبّ مخبرٍ بشيءٍ عَقَله ولا يعرف استقامته فيصدقه، والذي يفعل ذلك من الناس **ثلاثة: رجل** يصدِّق بما جرّبه غيره وصدَّقه فيصدِّقه هو ويتمادى في التصديق حتى كأنما جربه بنفسه، **ورجل** يُصدَّق بالأمور التي جربها ولكن من غير علم بحقيقتها، **ورجل** تلتبس عليه الأمور فيصدق بها.

اعرف الابتلاء والبلاء

كان يُقالُ إنّ الله تعالى قد يأمرُ بالشيء ويبتلي بثقلهِ وينهى عن الشيء ويبتلي بشهوته. فإذا كنتَ لا تعملُ من الخير إلا ما اشتهيتهُ، ولا تتركُ من الشر إلا ما كرهتهُ، فقد أطلعتَ الشيطان على عورتك، وأمكنْتهُ من رُمَّتك، فأوْشَك أن يقتحم عليك فيما تُحب من الخير فيكرِّهَهُ إليكَ وفيما تكرهُ من الشر فيحبِّبهُ إليك. ولكن ينبغي لكَ في حب ما تُحب من الخير التحاملُ على ما يُستثقلُ منه، وينبغي لكَ في كراهةِ ما تكرهُ من الشر التجنُّبُ لما يُحَّب منهُ.

لقد صدق القائل: لا يزال الرجلُ مستمراً ما لم يعثُر، فإذا عثَر مرة واحدةً في أرضِ الخَبارِ [اللينة] لجَّ بهِ العِثارُ، وإن مشى في جَدَد الأرض [الصلبة] لأن هذا الإنسان موكلٌ به البلاءُ، فلا يزالُ في تصرفٍ وفي تقلبٍ لا يدومُ له شيءٌ ولا يثبت معهُ، كما لا يدومُ لطالعِ النجومِ طلوعُهُ ولا لآفلها أفولهُ. ولكنها في تقلبٍ وتعاقُبٍ، فلا يزال الطالعُ يكُونُ آفلاً، والآفلُ طالعاً. وقلّ ما ترانا نُخلِّفُ عَقَبَةً من البلاء إلا صرنا في أُخرى. فلا يوقعنَّك بلاءٌ خلصتَ منهُ في آخرَ لعلك لا تخلُصُ منهُ. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد ٤).

اعرف الأصول والفروع

يا طالبَ الأدبِ إن كنتَ نوعَ العلمِ تريدُ فاعرِفِ الأصولَ والفصول. فإنّ كثيراً من الناسِ يطلبونَ الفصول مع إضاعةِ الأصول فلا يكونُ دركُهُم دركاً. ومن أحرز الأصول اكتفى بها عنِ الفصولِ. وإن أصابَ الفصلَ بعد إحرازِ الأصلِ فهو أفضلُ.

فأصل الأمرِ في **الدينِ** أن تعتقد الإيمانَ على الصواب، وتجتنبَ الكبائرَ، وتُؤدي الفريضةَ. فالزم ذلك لزوم مَن لا غنى له عنهُ طَرفةَ عينٍ، ومَن يعلم أنهُ إن حُرِمهُ هلك. ثم إن قدَرتَ على أن تجاوز ذلك إلى التفقه في الدِّين والعبادة فهو أفضلُ وأكملُ.

وأصلُ الأمرِ في صلاح **الجسد** ألا تحمل عليه من المآكلِ والمشارب والنكاح إلا خُفافاً، ثم إن قدرت على أن تعلم جميعَ منافعِ الجسد ومضارهِ والانتفاع بذلك كله فهو أفضلُ.

وأصلُ الأمر في **البأسِ** والشجاعةِ ألا تُحدِّثَ نفسك بالإدبارِ، وأصحابُكَ مقبلونَ على عدوهم. ثم إن قدرت على أن تكونَ أولَ حاملٍ وآخر مُنصرفٍ، من غير تضييعٍ للحذرِ فهو أفضلُ.

وأصلُ الأمرِ في **الجودِ** ألا تضِنَّ بالحقوق على أهلها. ثم إن قدرتَ أن تزيدَ ذا الحق على حقه وتَطُول على مَن لا حق لهُ فافعل فهو أفضلُ.

وأصلُ الأمرِ في **الكلامِ** أن تَسلَم من السَّقطِ بالتحفظِ. ثم إن قدرت على بارعِ الصوابِ فهو أفضلُ.

وأصلُ الأمر في **المعيشة** ألا تضعف عن طلبِ الحلالِ، وأن تحسن التقدير لما تفيد وما تنفقُ. ولا يغرنَّكَ من ذلك سعةٌ تكونُ فيها. فإنَّ أعظمَ الناسِ في الدنيا خطراً أحوجُهم إلى التقدير، والملوكُ أحوجُ إليهِ من السُّوقَةِ لأن السوقة قد تعيشُ بغيرِ مالٍ، والملوكَ لا قِوام لهم إلا بالمالِ. ثم إن قدَرتَ على الرفقِ واللطفِ في الطلبِ والعلمِ بوجوهِ المطالبِ فهو أفضلُ.

وأنا واعظُكَ في أشياء من الأخلاقِ اللطيفةِ والأمورِ الغامضةِ التي لو حنَّكتك سنٌ كنتَ خليقاً أن تعلمها وإن لم تُخبَرْ عنها. ولكنني قد أحببتُ أن أقدمَ إليكَ فيها قولاً لِتروُض نفسك على محاسنها قبل أن تجريَ على عادةِ مساوئها. فإنّ الإنسانَ قد تبتدرُ إليهِ في شبيبتهِ المساوئ، وقد يغلِبُ عليه ما بدر إليه منها للعادةِ، وإنَّ لِتركِ العادةِ مؤونةً شديدةً ورياضةً صعبةً. ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء ١٣٧).

كن حكيما

اثنان لا يفترقان: العُجب آفةُ العقل، واللجاجةُ قَعودُ الهوى، والبُخل لقاحُ الحرصِ، والمراءُ فسادُ اللسانِ، والحمّيةُ سببُ الجهلِ، والأنَفُ توأمُ السَّفهِ، والمنافسة أختُ العَداوةِ.

ولا ينفع العقلُ بغير ورعٍ، ولا الحفظُ بغيرِ عقلٍ، ولا شِدةُ البطشِ بغير شدة القلب، ولا الجمالُ بغيرِ حلاوةٍ، ولا الحسبُ بغير أدبٍ، ولا السرورُ بغير أمنٍ، ولا الغنى بغير جُودٍ، ولا المروءةُ بغير تواضعٍ، ولا الخفْض بغير كفايةٍ، ولا الاجتهادُ بغير توفيقٍ.

فالمروءاتُ كلها تَبعٌ للعقلِ، والرأي تبعٌ للتجربةِ، والغِبطةُ تبعٌ لحسنِ الثناء، والسرورُ تبعٌ للأمنِ، والقرابةُ تبع للمودةِ، والعملُ تبعٌ للقدرِ، والجِدةُ تبعٌ للإنفاقِ.

ومن حاول الأمورَ احتاج فيها إلى ست: العلمِ، والتوفيق، والفرصةِ، والأعوانِ، والأدبِ، والاجتهادِ. وهن أزواجٌ:

فالرأيُ والأدبُ زوجٌ. لا يكملُ الرأي بغيرِ الأدبِ، ولا يكملُ الأدبُ إلا بالرأي.

والأعوانُ والفرصةُ زوجٌ. لا ينفعُ الأعوانُ إلا عند الفرصةِ، ولا تتمُّ الفرصةُ إلا بحضورِ الأعوانِ.

والتوفيقُ والاجتهادُ زوجٌ، فالاجتهادُ سببُ التوفيقِ، وبالتوفيقِ ينجَحُ الاجتهادُ.

وخمسةٌ غيرُ مغتبطين في خمسة أشياء، يتندَّمون عليها: الواهنُ المفرِّطُ إذا فاته العملُ، والمنقطعُ من إخوانه وصديقهِ إذا نابتهُ النوائبُ، والمستمكنُ منه عدوُه لسوء رأيه إذا تذكر عجزهُ، والمفارقُ للزوجة الصالحة إذا ابتُلي بالطالحةِ، والجريءُ على الذنوبِ إذا حضَرهُ الموتُ.

لا يطمعنَ ذو الكبر في حُسن الثناء، ولا الخِبُّ في كثرة الصديق، ولا السيءُ الأدبِ في الشرفِ، ولا الشحيحُ في المحمدةِ، ولا الحريصُ في الإخوانِ، ولا الرئيس المُعجبُ بثباتِ الرئاسة.

لا يُـذكر الفـاجرُ في العقـلاء، ولا الكـذوبُ في الأعقّـاء، ولا الخَـذولُ في الكرمـاء، ولا الكفـورُ بشـيءٍ مـن الخيرِ.

خمـولُ الـذكر أجمـلُ مـن الـذكرِ الـذميم. ولا يوجـد الفخورُ محموداً، ولا الغضوبُ مسروراً، ولا الحُرُّ حريصاً، ولا الكريمُ حسوداً، ولا الشرِهُ غنياً، ولا الملولُ ذا إخوانٍ.

ليكنِ المرء سؤولاً، وليكن فصولاً بين الحق والباطل، وليكن صدوقاً ليؤمَّن على ما قال، وليكن ذا عهد ليُوفّى لهُ بعهـده، ولـيكن شـكوراً ليسـتوجب الـزيادة، ولـيكن جـواداً ليكـون للخير أهـلاً، ولـيكن رحيمـاً بالمضـرورين لـئلا يبتلـى بالضر، وليكن ودوداً لئلا يكون معدناً لأخلاق الشيطان، ولـيكن حافظـا للسـانه مقـبلا علـى شـأنه لـئلا يؤخـذ بمـا لم يجـترم، ولـيكن متواضـعاً ليُفـرح لـهُ بالخـير ولا يُحسـد عليـه، ولـيكن قَنِعـاً لتقـر عينـه بمـا أوتي، وليُسَـرَّ للنـاسِ بالخـيرِ لـئلا يؤذيه الحسـدُ، وليكن حـذراً لئلا تطول مخافتهُ، ولا يكـونن حقـوداً لئلا يضـرّ بنفسـهِ إضـراراً باقيـاً، وليكن ذا حيـاء لـئلا يُستذم إلى العُلماء، فإنَّ مخافة العالِمِ مذمَة العُلماء أشدُّ من مخافته عُقوبة الرئيس.

وأعـدلُ السِّـيَرِ أن تقـيس النـاس بنفسـكَ، فـلا تأتي إليهم إلا مـا ترضى أن يؤتى إليك. وأنفعُ العقلِ أن تحسنَ المعيشة فيما أوتيت من خيرٍ، وأن لا تكترث من الشر بما لم يصبك. ومن العلمِ أن تعلم أنك لا تعلمُ بما لا تعلمُ.

ومن أفضل البِرِّ ثلاثُ خصالٍ: الصدقُ في الغضبِ، والجودُ في العُسرةِ، والعفوُ عند القدرةِ.

صَرْعَةُ اللين أشد استئصالاً من صرعة المكابرة.

وأفضـلُ البِّر الرحمـةُ، ورأسُ المـودةِ الاسترسـالُ، ورأسُ العقلِ المعرفةُ بما يكونُ وما لا يكونُ، وطيبُ النفسِ حسنُ الانصرافِ عما لا سبيل إليه.

قال رجلٌ لحكيمٍ: ما خيرُ ما يؤتى المرء؟ قال: غريزةُ عقلٍ. قال: فإن لم يكن؟ قال: فتعلُمُ علمٍ. قال: فإن حُرِمَهُ؟ قال: صدقُ اللسانِ. قال: فإن حُرمهُ؟ قال: سكوتٌ طويلٌ. قـال: فـإن حرمـه؟ قـال: ميتـةٌ عاجلـةٌ. ﴿ يُـؤْتِي الْحِكْمَـةَ مَـنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة ٢٦٩).

أدب نفسك

وللعقولِ سجياتٌ وغرائزُ بها تقبل الأدب، وبالأدبِ تنمـى العقـولُ وتزكو.فكمـا أن الحبـة المدفونـة في الأرضِ لا تقـدر أن تخلـعَ يبسـها وتظهـر قوتهـا وتطلـع فـوق الأرضِ بزهرتهـا وريعهـا ونضـرتها ونمائهـا إلا بمعونـةِ المـاء الـذي يغـورُ إليهـا في مسـتودعها فيـذهب عنهـا أذى اليَـبس والمـوت ويحـدث لهـا بإذن الله القـوة والحيـاة، فكـذلك سـليقةُ العقـلِ مكنونـةٌ في مغرزهـا مـن القلـبِ: لا قـوة لهـا ولا حيـاة بهـا ولا منفعة عندها حتى يعتملَها الأدبُ الذي هو ثمارها وحياتها ولقاحها.

وجلّ الأدب بالمنطق وجل المنطقِ بالتعلمِ. ليس منه حـرف مـن حـروف معجمـه، ولا اسـم مـن أنـواع أسمائـه **إلا وهـو مـروي متعلمٌ مـأخوذٌ عـن إمـام سـابقٍ مـن كـلامٍ أو كتـابٍ**. وذلـك دليـلٌ علـى أنّ النـاس لم يبتـدعوا أصـولها ولم يأتهم علمها إلا من قِبلِ العليمِ الحكيمِ.

فإذا خرجَ الناسُ من أن يكونَ لهم عملٌ أصيلٌ وأن يقولوا قولاً بديعاً فليعلمِ الواصفونَ أن أحدهم، وإن أحسن وأبلغ، ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوصٍ وجد ياقوتاً وزبرجَداً ومَرجاناً، فنظمه قلائد وأكاليل، ووضع كل فَصّ موضعهُ، وجمعَ إلى كل لونٍ شِبهه وما يزيدهُ بذلك حسـناً، فسـمي بـذلك صـانعاً رفيقـاً، وكصـاغة الـذهب والفضـة، صنعوا منها ما يعجبُ الناس من الحُلي والآنية، وكالنحل وجدت ثمراتٍ أخرجها الله طيبةً، وسلكت سبلاً

alkhaznadarn67@gmail.com

جعلها الله ذُللاً، فصار ذلك شفاءً وطعاماً، وشراباً منسوباً إليها، مذكوراً به أمرها وصنعتها.

فمن جرى على لسانه كلامٌ يَستحسنهُ أو يُستحسنُ منهُ، فلا يُعجبن إعجاب المخترع المبتدعِ، فإنه إنما اجتناهُ كما وصفنا.

ومن أخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلم به في موضعه وعلى وجهه، فلا ترين عليه في ذلك ضؤولة. فإنّ من أُعين على حفظِ كلام المصيبين، وهُدي للاقتداء بالصالحين، ووُفق للأخذِ عن الحكماء، ولا عليهِ أن يزداد، فقد بلغ الغاية. وليس بناقصهِ في رأيه ولا غامطهِ من حقه أن لا يكون هو استحدث ذلك وسَبق إليه. فإنما إحياءُ العقل الذي يتم به ويَستحكم خصالٌ سبعٌ: الإيثارُ بالمحبةِ، والمبالغة في الطلب، والتثبّتُ في الاختيارِ والارتيادُ للخيرِ، وحسنُ الرعي والتعهد لما اختير واعتُقد، ووضع ذلك موضعهُ قولاً وعملاً.

أما **المحبة** فإنها تُبلغ المرء مبلغَ الفضلِ في كل شيء من أمرِ الدنيا والآخرة حين يؤثر بمحبته. فلا يكون شيءٌ أمرأ ولا أحلى عنده منه.

وأما **الطلبُ**، فإنّ الناس لا يغنيهم حبهم ما يحبون وهواهم ما يهوون عن طلبه وابتغائه. ولا تُدركُ لهم بغيتهم ونفاستُها في أنفسهم، دون الجد والعمل.

وأما **التثبتُ** والتخيرُ، فإن الطلبَ لا ينفعُ إلا معهُ وبه. فكم من طالب رُشدٍ وجدهُ والغيَّ معاً، فاصطفى منهُما الذي منهُ هربَ، وألغى الذي إليه سعى، فإذا كان الطالبُ يحوي غير ما يريدُ، وهو لا يشك في الظفرِ، فما أحقهُ بشدةِ التبيينِ وحسنِ الابتغاء.

وأما **اعتقادُ** الشيء بعد استبانته، فهو ما يطلبُ من إحراز الفضل بعد معرفته. وكان يقال: المؤمنُ بشيء من الأشياء، وإن كان سحراً، خيرٌ ممن لا يؤمنُ بشيء ولا يرجو معاداً. ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾(طه ٦٩).

وأما **الحِفظُ** والتعهد، فهو تمام الدَّرْكِ. لأن الإنسان موكَّلٌ به النسيانُ والغفلةُ. فلا بد لهُ، إذا اجتبى صواب قولٍ أو فعلٍ من أن يحفظهُ عليه ذهنهُ لأوان حاجته. فإذا غَرَسْتَ من المعروفِ غرساً وأنفقتَ عليهِ نَفَقَةً فلا تضِنَّنَّ في تربية ما غرستَ واستِنمائهِ، فتذهَبَ النفقةُ الأولى ضِياعاً.

وأما **البصرُ** بالموضعِ، فإنما تصيرُ المنافعُ كلها إلى وضعِ الأشياء مواضعها، وبنا إلى هذا كله حاجةٌ شديدةٌ. فإنا لم نوضع في الدنيا موضعَ غنًى ولين عيش ولكن بموضعِ فاقةٍ وكدٍّ، ولسنا إلى ما يمسكُ أرماقنا من المأكل والمشرب بأحوج منا إلى ما يثبتُ عقولنا من الأدبِ الذي به تفاوتُ العقول. وليس غذاءُ الطعامِ بأسرعَ في نباتِ الجسدِ من غذاء الأدب في نباتِ العقلِ. ولسنا بالكد في طلبِ المتاعِ الذي يلتمسُ بهِ دفعُ الضررِ والغلبةُ بأحق منا بالكد في طلبِ العلمِ الذي يُلتمسُ بهِ صلاحُ الدينِ والدنيا. ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(لقمان ١٧).

اعرف اللّه

من أراد أن يبصر شيئاً من علمِ الآخرة، فعليه بعلم الدِّين فهو الذي يُعرفُ به ذلك، ومن أراد أن يبصر شيئاً من أمر الدنيا فبالأشياء التي هي تدل عليه.

ومما يدل على معرفةِ الله وسبب الإيمان أن يوكِّل بالغيبِ لكل ظاهرٍ من الدنيا صغيرٍ أو كبيرٍ عيناً، فهو يُصرِّفهُ ويحركهُ. فمَن كان معتبراً بالجليل من ذلك فلينظر إلى السماء فسيعلَمُ أن لها رباً يُجري فَلَكها، ويُدبِّرُ أمرها، ومَن اعتبر بالصغير، فلينظر إلى حبةِ الخردلِ فسيعرفُ أن لها مدبراً ينبتها ويزكيها ويقدِّرُ لها أقواتها من الأرض والماء، يوقِّتُ لها زمانَ نباتها وزمانَ تهشُّمها. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ

alkhaznadarn67@gmail.com

وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام ٥٩).

وأمر النبوةِ والأحلامِ وما يحدثُ في أنفسِ الناس من حيثُ لا يعلمونَ، ثم يظهرُ منهم بالقولِ والفعلِ – ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(الروم ٢٣) – ثم اجتماعِ العلماء والجهَّالِ والمهتدين والضلال على ذكر الله وتعظيمه، واجتماعِ من شك في اللهِ وكذب بهِ على الإقرارِ بأنهم أنشئوا حديثاً، ومعرفتهم أنهم لم يحدثوا أنفسهم، فكل ذلك يهدي إلى الله ويدُل على الذي كانت منهُ هذه الأمورُ، مع ما يزيدُ ذلك يقيناً عند المؤمنين بأنّ الله حقٌ كبيرٌ ولا يقدرُ أحدٌ على أن يوقن أنه بالباطلِ. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الحج ٦).

كن من ذوي الألباب

الواصفون أكثرُ من العارفين، والعارفون أكثرُ من الفاعلينَ. فلينظر امرؤ أين يضعُ نفسه. فإنّ لكل امرئ لم تدخل عليه آفةٌ نصيباً من اللُّب يعيشُ به لا يُحب أنّ لهُ به من الدنيا ثمناً. وليس كل ذي نصيبٍ من اللب بمستوجبٍ أن يسمى في ذوي الألبابِ، ولا يوصفُ بصفاتهم. فمن رام أن يجعل نفسهُ لذلك الاسم والوصفِ أهلاً، **فليأخذ له عتادهُ، ولْيُعِدَّ له طول أيامه، وليؤثره على أهوائهِ.** فإنهُ قد رام أمراً جسيماً لا يصلحُ على الغفلة، ولا يدركُ بالمعجَزة، ولا يصيرُ على الأثرةِ. **وليس كسائرِ أمورِ الدنيا وسلطانها ومالها وزينتها التي قد يدركُ منها المتواني ما يفوتُ المثابرُ، ويصيبُ منها العاجزُ ما يُخطئ الحازمُ.**

القسم الذي يُقسمُ للناس ويُمتعونَ به نحوَان: فمنهُ حارسٌ ومنهُ محروس، فالحارسُ العقلُ، والمحروسُ المالُ، والعقلُ، بإذن اللهِ، هو الذي يحرزُ الحظ، ويؤنسُ الغربةَ، وينفي الفاقةَ، ويعرِّفُ النكرة، ويُشهِّرُ للمكْسَبة، ويطيِّبُ الثمرةَ، ويوجهُ السوقةَ عند الرئيس، ويستنزلُ للرئيس نصيحةَ السوقةِ، ويُكسبُ الصديقَ، ويَكفي العدو.

وأشدُّ الفاقةِ عدمُ العقلِ، وأشدّ الوَحْدةِ وحدةُ اللَّجُوجِ، ولا مالَ أفضلُ من العقلِ، ولا أنيسَ آنسُ من الاستشارةِ. والعقلُ الذاتي غيرُ الصنيعِ، كالأرضِ الطيبةِ غيرِ الخرابِ.

ولا عقل لمن أغفلهُ عن آخرتهِ ما يجِدُ من لذةِ دنياهُ، وليس من العقلِ أن يحرمهُ حظهُ من الدنيا بصرهُ بزوالها.

وليعلم أن على العاقلِ أموراً إذا ضيعها حكم عليه عقلهُ بمقارنة الجهّال. فعلى العاقلِ أن يعلم أن الناس مشتركونَ مستوون في الحبُ لما يوافقُ والبغضِ لما يؤذي، وأنّ هذه منزلةٌ اتفق عليها الحمقى والأكياسُ، ثم اختلفوا بعدها في ثلاث خصالٍ هن جِماعُ الصوابِ وجماعُ الخطأ، وعندهن تفرقتِ العلماءُ والجهال، والحَزَمةُ والعَجزة.

الباب الأول من ذلك: أن العاقل ينظرُ فيما يؤذيه وفيما يسرهُ، فيعلم أنّ أحق ذلك بالطلبِ إن كان مما يحب، وأحقهُ بالاتقاء إن كان مما يكرهُ، أطولهُ وأدوَمُهُ وأبقاهُ، فإذا هو قد أبصر فضل الآخرةِ على الدنيا، وفضل سرورِ المروءةِ على لذة الهوى، وفضل الرأي الجامعِ الذي تصلحُ به الأنفُسُ والأعقابُ على حاضرِ الرأي الذي يُستمتعُ به قليلاً ثم يضمحِل، وفضل الأكلاتِ على الأكلة والساعات على الساعة.

الباب الثاني من ذلك: أن ينظُرَ فيما يُؤثرُ من ذلك، فيضعَ الرجاءَ والخوفَ فيهِ موضعهُ، فلا يجعل اتقاءهُ لغيرِ المخوفِ ولا رجاءهُ في غيرِ المدركِ. فيتوقى عاجلَ اللذاتِ طلباً لآجلها، ويحتملُ قريبَ الأذى توقياً لبعيدهِ. فإذا صارَ إلى العاقبةِ، بدا لهُ أن قرارهُ كان تورطاً وأن طلبه كان تنكباً.

الباب الثالث من ذلك: هو تنفيذُ البصرِ بالعزمِ بعد المعرفةِ بفضل الذي هو أدوم، وبعد التثبتِ في مواضعِ الرجاء والخوف. فإنّ طالب الفضل بغير بصرٍ تائهٌ حيرانُ، ومبصرَ الفضلِ بغيرِ عزمٍ ذو زمانةٍ محروم.

حاسب نفسك

وعلى العاقل **محاسبةُ نفسه ومخاصمتُها والقضاءُ عليها والإثابةُ والتنكيلُ بها.**

أما **المحاسبةُ**، فيحاسبُها بما لها، فإنهُ لا مال لها إلا أيامُها المعدودةُ التي ما ذهبَ منها لم يستخلف كما تُستخلفُ النفقةُ، وما جُعل منها في الباطلِ لم يرجع إلى الحق، فيُتَنبهُ لهذه المحاسبةِ عند الحول إذا حال، والشهر إذا انقضى، واليوم إذا ولى، فينظر فيما أفنى من ذلك، وما كسب لنفسهِ، وما اكتسب عليها في أمرِ الدينِ وأمرِ الدنيا. فيجمعُ ذلك في كتابٍ فيه إحصاءٌ، وجَدٌّ، وتذكيرٌ للأمورِ، وتبكيتٌ للنفسِ، وتذليل لها حتى تعترفَ وتُذْعِنَ.

وأما **الخصومةُ**، فإنّ من طباعِ النفسِ الآمرةِ بالسوء أن تدَّعي المعاذيرَ فيما مضى، والأماني فيما بقي، فيَرُدَّ عليها معاذيرها وعللها وشُبُهاتها. ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(يوسف ٥٣).

وأما **القضاءُ**، فإنهُ يحكمُ فيما أرادت من ذلك على السيئة بأنها فاضحةٌ مرديةٌ موبقةٌ، وللحسنةِ بأنها زائنةٌ منجيةٌ مربحةٌ.

وأما **الإثابةُ والتنكيلُ**، فإنهُ يَسر نفسَهُ بتذكر تلك الحسناتِ ورجاء عواقبها وتأميلِ فضلها، ويعاقبُ نفسه بالتذكر للسيئاتِ والتَّبشّعِ بها والاقشعرار منها والحُزن لها.

فأفضل ذوي الألباب أشدهم لنفسه بهذا أخذاً، وأقلُهم عنها فيه فترةً. ويعينه على تحقيق ذلك ما يلي:

أن لا يكونَ راغباً إلا في إحدى ثلاثٍ: تزودٍ لمعادٍ، أو مرمةٍ لمعاشٍ، أو لذةٍ في غير محرمٍ.

أن يذكر الموتَ في كل يومٍ وليلةٍ مراراً، ذكراً يباشر به القلوبَ ويمنع الطماح، فإنّ في كثرةِ ذكر الموتِ عصمةً من الأشرِ، وأماناً بإذن الله، من الهلعِ. ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾(الزمر ٥٤).

أن لا يحزن على شيءٍ فاتهُ من الدنيا أو تولى، وأن يُنزلَ ما أصابهُ من ذلك ثم انقطعَ عنهُ منزلةَ ما لم يُصب، وينزلَ ما طلبَ من ذلك ثم لم يدركهُ منزلة ما لم يطلب، ولا يدع حظهُ من السرورِ بما أقبل منها، ولا يبلُغنَّ ذلك سُكراً ولا طغياناً، فإنّ مع السكر النسيانَ، ومع الطغيانِ التهاونَ، ومن نسي وتهاون خسِرَ.

أن يحصي على نفسه مساويَها في الدين وفي الأخلاق وفي الآدابِ، فيجمع ذلك كلهُ في صدرهِ أو في كتابٍ، ثم يكثر عرضهُ على نفسه، ويكلفها إصلاحهُ، ويوظف ذلك عليها توظيفاً من إصلاح الخَلَّةِ والخلتينِ والخلالِ في اليومِ أو الجمعةِ أو الشهرِ. فكلما أصلحَ شيئاً محاهُ، وكلما نظر إلى محوٍ استبشر، وكلما نظر إلى ثابتٍ اكتأب. ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(الحديد ٢٣).

أن يتفقد محاسنَ الناسِ ويحفظها على نفسه، ويتعهدها بذلك مثلَ الذي وصفنا في إصلاح المساوي. ومن أشد عيوبِ الإنسانِ خفاءً خفاءُ عيوبهِ عليه، فإنّ من خفي عليه عيبُه خفيَت عليه محاسنُ غيره، ومن خفي عليه عيبُ نفسه ومحاسنُ غيرهِ فلن يقلعَ عن عيبهِ الذي لا يعرفُ ولن ينال محاسنَ غيرهِ التي لا يبصرُ أبداً.

فحـقٌ علـى العاقـل أن يتخـذ مِـرآتَينِ، فينظـرَ مـن إحداهما في مساوئ نفسه فيتصاغرَ بها ويُصلحَ ما استطاع منهـا، وينظـرَ في الأخـرى في محاسـنِ النـاسِ، فيحلِّيَهم بهـا ويأخذ ما استطاع منها. ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(طه ١١٤).

اغتنم الوقت

وعلى العاقل، ما لم يكن مغلوباً على نفسه، أن لا يشغلهُ شغلٌ عن أربعِ ساعاتٍ: ساعةٍ يرفعُ فيها حاجتهُ إلى ربهِ، وساعةٍ يحاسبُ فيها نفسهُ، وساعةٍ يفضي فيها إلى إخوانهِ وثقاته الذين يَصدُقونه عن عيوبهِ وينصحونهُ في أمرهِ، وساعةٍ يُخلي فيها بين نفسهِ وبين لذتها مما يحِل ويجمُلُ، فإن هـذه السـاعةَ عـونٌ على السـاعات الأخَـرِ، وإنّ استجمام القلوبِ وتوديعها زيادةُ قوةٍ لها وفضل بُلغةٍ. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(الأعراف ٣٢).

لا تستهن بالصغير

كـلامُ اللبيـبِ، وإن كـان نـزراً، أدبٌ عظيمٌ، ومقارفةُ المأثم، وإن كـان محتقـراً، مصيبةٌ جليلةٌ. ولقـاءُ الإخـوانِ، وإن كان يسيراً، غُنْمٌ حسنٌ. وأربعةُ أشياءَ لا يُستقَلُّ منها قليلٌ: النارُ، والمرضُ، والعدو، والدَّينُ.

ومـن استعظم مـن الـدنيا شيئاً فبَطَـر، واستصغر مـن الـدنيا شـيئاً فتهـاون، واحتقـر مـن الإثم شـيئاً فـاجترأ عليـه، واغـتر بعـدوٍ وإن قـلَّ فلـم يحـذره، فـذلك مـن ضيـاعِ العقـلِ. ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (الزمر ٢٥).

فعلـى العاقـل أن لا يستصـغر شـيئاً مـن الخطـأ في الـرأي، والزلـلِ في العلـمِ، والإغفـال في الأمـور. فإنـهُ مـن استصغر الصغير أوشكَ أن يجمعَ إليه صغيراً وصغيراً، فإذا الصغير كبيرٌ. وإنما هي ثُلَم يثلَمُها العجزُ والتضييعُ، فإذا لم تُسدَّ أوشكت أن تتفجر بما لا يطاقُ. ولم نر شيئاً قط إلا قد أُتي من قِبلِ الصغير المتهاوَنِ به، قد رأينا الملكَ يؤتَى من العدو المحتَقَر به، ورأينا الصحة تؤتى من الداء الذي لا يُحفلُ بهِ، ورأينا الأنهار تنبثقُ من الجدول الذي يُستخف بهِ. وأقل الأمورِ احتمالاً للضياعِ الملكُ، لأنه ليس شيءٌ يضيعُ، وإن كـان صغيراً، إلا اتصـل بآخـر يكـونُ عظيمـاً. ﴿فَذَرْنِي وَمَـنْ يُكَـذِّبُ بِهَـذَا الْحَـدِيثِ سَنَسْـتَدْرِجُهُمْ مِـنْ حَيْـثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾(القلم ٤٤).

فرّق بين الدين والرأي والهوى

فصلُ ما بين الدِّينِ والرأي، أن الدِّين يسلم بالإيمان، وأن الرأي يثبتُ بالخصومةِ، فمن جعل الدين خصومةً، فقد جعل الدين رأياً، ومن جعل الرأي ديناً فقد صار شارعاً، ومن كان هو يشرعُ لنفسهِ الدينَ فلا دين لهُ. وقد يشتبهُ الـدينُ والـرأي في أمـاكن، لـولا تشـابههما لم يحتاجـا إلى الفصل.

وعلى العاقلِ أن يجبنَ عن المضي على الرأي الذي لا يجدُ عليه موافقاً وإن ظن أنهُ على اليقينِ. وعلى العاقلِ أن يعـرف أن الـرأي والهـوى متعـاديان، وأن مـن شـأنِ النـاسِ تسويفَ الرأي وإسعافَ الهوى، فيخالفَ ذلك ويلتمس أن لا يـزال هـواهُ مسوفاً ورأيه مسعَفاً. وعلى العاقل إذا اشتبه عليـه أمـرانِ فلـم يـدرِ في أيهمـا الصـوابُ أن ينظـر أهوَاهمـا عنده، فيحذره. وإذا بـدَهكَ أمرانِ لا تدري أيّهما أصوبُ فانظر أيهُما أقربُ إلى هواكَ فخالِفهُ، فإنّ أكثرَ الصوابِ في خلافِ الهوى.

فإذا هممت بخيرٍ فبادر هواكَ، لا يغلِبك، وإذا هممتَ بشرٍ فسوِّف هواك لعلك تظفرُ، فإنَّ ما مضى من الأيامِ والساعاتِ على ذلك هو الغُنْمُ.

ومـن أعظـمِ مـا يُـروِّحُ بـه المـرءُ نفسَـهُ أن لا يجـريَ لمـا يهوى وليس كائناً، ولا لما لا يهوى وهو لا محالةَ كائنٌ.

فينبغي للعاقل أن يكون لهواه متهماً، ولا يقبل من كل أحدٍ حديثاً، ولا يتمادى في الخطأ إذا التبس عليه أمره

حتى يتبين له الصواب، وتتضح له الحقيقة، ولا يكون كالرجل الذي يجور عن الطريق، فيستمر على الضلال، فلا يزداد في السير إلا جهداً، وعن القصد إلا بعداً، وكالرجل الذي تقذى عينه فلا يزال يحكها، حتى ربما كان ذلك الحك سبباً لذهابها.

وكان يقالُ: عمل الرجلِ فيما يعلم أنه خطأ هوًى، والهوى آفةُ العفافِ. وتركهُ العمل بما يعلم أنه صوابٌ تهاونٌ، والتهاونُ آفةُ الدِّين. وإقدامُهُ على ما لا يدري أصوابٌ هو أم خطأ جِماح، والجِماحُ آفةُ العقلِ. ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾(الفرقان ٤٣).

استشر ذوي الألباب

لا ينبغي للمرء أن يعتدَّ بعلمه ورأيه ما لم يذاكرهُ ذوو الألباب ولم يوافقوه عليه. فإنهُ لا يُستكملُ علمُ الأشياء بالعقلِ الفرد.

ولا يمنعنك صِغرُ شأن امرئ من اجتِناء ما رأيتَ من رأيه صواباً، والاصطفاء لما رأيتَ من أخلاقه كريماً، فإنّ اللؤلؤة الفائقة لا تُهانُ لهوانِ غائِصِها الذي استخرجها.

والحازم يزدادُ برأي الحزمةِ كما يزدادُ البحرُ بموادهِ من الأنهارِ. والمستشير وإن كان أفضل من المستشار رأياً، فهو يزدادُ برأيه رأياً، كما تزدادُ النارُ بالدُهن ضوءاً.

وعلى المستشارِ مُوافقةُ المستشير على صوابِ ما يرى، والرفقُ به في تبصير خطأ إن أتى بهِ، وتقليبُ الرأي فيما شكَّا فيه، حتى تستقيم لهما مشاورتُهما.

وكلُّ أحدٍ حقيقٌ، حين ينظرُ في أمورِ الناسِ، أن يتهم نظرهُ بعينِ الريبةِ، وقلبَهُ بعينِ المقتِ، فإنهما يُزَيّنانِ الجَور ويحملانِ على الباطلِ ويقبّحانِ الحسنَ ويُحسّنانِ القبيحَ. وأحقُّ الناسِ باتهامِ نظرهِ بعينِ الريبةِ وعينِ المقتِ الرئيس الذي ما وقعَ في قلبهِ ربا مع ما يُقيَضُ له من تزيينِ القرناءِ والوزراءِ.

واعلم أنّ المستشار ليس بكفيلٍ، وأنّ الرأي ليس بمضمونٍ. بل الرأيُ كلهُ غَرَرٌ، لأنّ أمورَ الدنيا ليس شيءٌ منها بثقةٍ، ولأنه ليس من أمرها شيءٌ يدركهُ الحازمُ إلا وقد يدركهُ العاجزُ. بل ربَّما أعيا الحَزَمَةَ ما أمكَنَ العجزةَ.

فإذا أشارَ عليكَ صاحبكَ برأي، ثم لم تجد عاقبتهُ على ما كنتَ تأملُ فلا تجعل ذلك عليهِ ذنباً، ولا تلزمهُ لوماً وعذلاً بأن تقولَ: أنت فعلتَ هذا بي، وأنت أمرتني، ولولا أنتَ لم أفعل، ولا جَرَمَ لا أُطيعكَ في شيء بعدها. فإنّ هذا كلّهُ ضجرٌ ولؤمٌ وخِفّةٌ.

فإن كنت أنتَ المشيرَ، فعملَ برأيكَ أو تركهُ، فبدا صوابُكَ فلا تمنُن بهِ ولا تكثرنّ ذكرهُ إن كان فيهِ نجاحٌ، ولا تلُمهُ عليه إن كانَ قد استبانَ في تركهِ ضررٌ بأن تقول: ألم أقل لكَ افعل هذا، فإنَّ هذا مُجانِبٌ لأدبِ الحُكماء. ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(البقرة ٢٦٩).

القسم الثاني
معرفة الناس

الناس أجناس. والناسُ، إلا قليلاً ممن عصم اللهُ، مدخولونَ في أمورهم: فقائلهم باغٍ، وسامعهم عيَّابٌ، وسائلهم متعنتٌ، ومجيبهم متكلفٌ، وواعظُهم غيرُ محققٍ لقولهِ بالفعلِ، وموعوظهم غيرُ سليمٍ من الاستخفافِ، والأمينُ منهم غيرُ متحفظٍ من إتيان الخيانة، والصدوقُ غيرُ محترسٍ من حديث الكَذَبةِ، وذو الدِّينِ غيرُ مُتَوَرّعٍ عن تفريطِ الفَجرةِ، والحازمُ منهم غيرُ تاركٍ لتوقعِ الدوائرِ. يتناقضُون البناء، ويَتراقبون الدُّول، ويتعايبونَ **بالهمز**، مولَعونَ في الرخاء **بالتحاسدِ**، وفي الشدةِ **بالتخاذُلِ**.

وأحقُّ الناسِ بإجبار نفسه على العدل في النظر والقولِ والفعلِ الرئيس الذي ما قال أو فعل كان أمراً نافذاً غير مردودٍ.

وأحق الناسِ بالتوقير الرئيس الحليمُ، العالمُ بالأمورِ وفُرصِ الأعمالِ ومواضعِ الشدةِ واللين والغضبِ والرضا والمعاجَلةِ والأناة، الناظرُ في أمرِ يومه وغدهِ وعواقبِ أعمالهِ. وأحق الناسِ بالرئيس أهل المعرفة، وأحقهم بالتدبير العُلماءُ، وأحقهم بالفضل أعوَدُهم على الناس بفضله، وأحقهم بالعلمِ أحسنُهم تأديباً، وأحقهم بالغنى أهل الجود.

وأقربهم إلى الله أنفذهم في الحق علماً وأكملهم به عملاً، **وأحكمهم** أبعدهم من الشك في الله، **وأصوبهم** رجاءً أوثقهم بالله، **وأشدهم** انتفاعاً بعلمه أبعدهم من الأذى، **وأرضاهم** في الناسِ أفشاهم معروفاً، **وأقواهم** أحسنهم معونةً، **وأشجعهم** أشدهم على الشيطان، **وأفلجهم** بحجةٍ أغلبهم للشهوة والحرصِ، **وآخذهم** بالرأي أتركهم للهوى، **وأحقهم** بالمودة أشدهم لنفسهِ حباً، **وأجودهم** أصوبهم بالعطية موضعاً، **وأطولهم** راحةً أحسنهم للأمورِ احتمالاً، **وأقلهم** دَهَشاً أرحبهم ذراعاً، **وأوسعهم** غنى أقنعهم بما أوتيَ، **وأخفضهم** عيشا أبعدهم من الإفراط، **وأظهرهم** جمالاً أظهرهم حصافة، **وآمنهم** في الناس أكَّلُّهم ناباً ومِخْلَباً، **وأثبتهم** شهادةً عليهم أنطقُهم عنهم، **وأعدَلُهم** فيهم أدوَمُهم مسالمةً لهم، **وأحَقُّهم** بالنِّعَمِ أشكَرُهُم لما أُوتي منها.

وكان يقالُ: الرجالُ أربعةٌ: اثنان تختبرُ ما عندهما بالتجربةِ، واثنان قد كُفيتَ تجربتهما. فأما اللذانِ تحتاجُ إلى تجربتهما، فإن أحدهما بَرٌّ كان مع أبرارٍ، والآخر فاجرٌ كان مع فُجّارٍ، فإنك لا تدري لعل البر منهما إذا خالط الفُجّارَ أن يتبدل فيصير فاجراً، ولعل الفاجر منهما إذا خالط الأبرار أن يتبدل براً، فيتبدلُ البر فاجراً، والفاجر براً. وأما اللذان قد كفيتَ تجربتهما وتبيَّن لك ضوءُ أمرهما، فإنّ أحدهما فاجرٌ كان في أبرارٍ، والآخر برّ كان في فُجّارٍ.

والرجالُ أربعةٌ: جوادٌ، وبخيلٌ، ومسرفٌ، ومقتصدٌ. **فالجوادُ** الذي يوجهُ نصيبَ آخرتهِ ونصيبَ دنياهُ جميعاً في أمرِ آخرتهِ. **والبخيلُ** الذي يخطئ واحدةً منهما نصيبها. **والمسرفُ** الذي يجمعُهما. **والمقتصدُ** الذي يلحقُ بكل واحدةٍ منهُما نصيبها. ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾(فاطر ٣٢).

محبّ المدح

إياكَ إذا كُنتَ رئيساً، أن يكونَ من شأنك حبُّ المدحِ والتزكية وأن يعرفَ الناسُ ذلك منكَ، فتكون ثُلمةً من الثُّلم يتقحَّمونَ عليك منها، وباباً يفتتحونك منهُ، وغِيبةً يغتابونك بها ويضحكون منك لها.

واعلم أن قابل المدحِ كمادحِ نفسهِ. والمرءُ جديرٌ أن يكونَ حبُّهُ المدحَ هو الذي يحملهُ على ردِّهِ. فإنَّ الرادّ لهُ محمودٌ، والقابلَ له معيبٌ.

تنكَّب، فيما بينكَ وبينَ الرئيس وفيما بينكَ وبينَ الإخوانِ، خُلُقاً قد عرفناهُ في بعضِ النواب والأعوان في ادعاء الرجلِ، عندما يظهرُ من صاحبهِ حُسنُ أثرٍ أو صوابُ رأيٍ، أنهُ عمِلَ في ذلك وأشار به، وإقرارهِ بذلكَ إذا مدحهُ به مادحٌ. بل إن استطعتَ أن تعرِّفَ صاحبكَ أنك تنحلُهُ صوابَ رأيكَ، فضلاً عن أن تدَّعي صوابهُ، وتُسنِدَ ذلك إليه وتزيّنهُ بهِ، فافعل. فإنّ الذي أنت آخذٌ بذلك أكثرُ مما أنتَ مُعطٍ بأضعافٍ.

واعلم أنّ الرجل قد يكونُ حليماً، فيحملهُ الحرصُ على أن يقولَ الناسُ جَليدٌ، والمخافةُ أن يقالَ مَهينٌ على أن يتكلفَ الجهل. وقد يكونُ الرجلُ زَميتاً فيحملهُ الحرصُ على أن يقالَ لسِنٌ، والمخافةُ من أن يقالَ عِيِيّ على أن يقولَ في

alkhaznadarn67@gmail.com

غيرِ موضعهِ فيكونَ هذِراً. فاعرِف هذا وأشباهَه، واحترس منهُ كلّهِ. ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ **يُحْمَدُوا** بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(آل عمران ١٨٨).

الجبان والحذر

اعلم أنّ الجُبنَ مقتلةٌ، وأنّ الحِرصَ مَحْرَمَةٌ. فانظر فيما رأيتَ أو سمعتَ: أمَنْ قُتِلَ في القتالِ مقبلاً أكثرُ أم من قتلَ مدبراً؟ وانظر أمن يطلبُ إليكَ بالإجمالِ والتكرمِ أحق أن تسخو نفسكَ له بطلبتهِ أم من يطلبُ إليكَ بالشَّرَهِ والزَّيغِ؟

واعلم أن مِن تنَكُّبِ الأمورِ ما يسمى حَذَراً، ومنهُ ما يُسمى خَوَراً. فإن استطعتَ أن يكونَ جُبْنُكَ مِن الأمرِ قبل مواقعتكَ إياهُ فافعل، فإنّ هذا الحذرُ. ولا تنغمِسْ فيه ثم تتهيَّبُهُ، فإنّ هذا هو الخَوَرُ. فإنّ الحكيم لا يخوضُ نهراً حتى يعلمَ مقدارَ غورهِ.

واعلم أنّ بعض شدة الحذرِ عَونٌ عليكَ فيما تحذرُ وأنّ بعض شدةِ الاتقاء مما يدعو إليك ما تتقي. ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾(الجمعة ٨).

الحسود

ليكن مما تصرفُ به الأذى والعذابَ عن نفسكَ ألا تكونَ حسوداً. فإن الحسد خُلُقٌ لئيمٌ. ومن لؤمهِ أنهُ مُوَكَّلٌ بالأدنى فالأدنى من الأقاربِ والأكْفاء والمعارفِ والخُلطاء والإخوانِ.

فليكنْ ما تُعاملُ به الحسد أن تعلمَ أنّ خير ما تكونُ حينَ تكونُ مع من هو خيرٌ منكَ، وأن غنماً حسناً لكَ أن يكونَ عشيرُكَ وخليطُكَ أفضلَ منكَ في العلمِ، فتقتبسَ من علمهِ، وأفضلَ منكَ في القوة، فيدفع عنكَ بقوتهِ، وأفضلَ منكَ في المالِ، فتُفيدَ من مالهِ، وأفضل منكَ في الجاهِ، فتُصيبَ حاجتَكَ بجاهِهِ، وأفضلَ منكَ في الدينِ، فتزدادَ صلاحاً بصلاحهِ.

وقد رأينا من سوءِ المجالسةِ أنّ الرجل تثقلُ عليهِ النعمةُ يراها بصاحبهِ، فيكون ما يشتفي بصاحبهِ، في تصغيرِ أمرهِ وتكديرِ النعمةِ عليه، أن يذكُر الزوالَ والفناء والدّولَ، كأنهُ واعظٌ وقاصٌّ. فلا يخفى ذلك على من يُعْنى بهِ ولا غيرهِ. ولا يُنَزَّلُ قولُهُ بمنزلةِ الموعظةِ والإبلاغِ، ولكن بمنزلةِ الضَّجرِ من النعمةِ، إذا رآها لغيرهِ، والاغتمامِ بها والاستراحةِ إلى غيرِ رَوْحٍ. واستعذ بالله منه ﴿وَمِنْ شَرِّ **حَاسِدٍ** إِذَا حَسَدَ﴾(الفلق ٥).

الكذاب

رأسُ الذنوبِ الكذبُ: هو يؤسسُها، وهو يتفقدها ويثبتها. ويتلونُ ثلاثة ألوانٍ: بالأمنيةِ، والجحودِ، والجدلِ، يبدو لصاحبهِ بالأمنية الكاذبة فيما يزينُ لهُ من الشهواتِ فيشجعهُ عليها بأنّ ذلك سيخفى. فإذا ظهر عليه قابلهُ بالجحودِ والمكابرةِ، فإن أعياهُ ذلك ختم بالجدلِ، فخاصم عن الباطل ووضع لهُ الحجج، والتمس به التثبت وكابر بهِ الحق حتى يكون مسارعاً للضلالةِ ومكابراً بالفواحشِ.

ولا تتهاونَّ بإرسال الكذبة عند الرئيس أو غيرهِ في الهزلِ، فإنها تسرعُ في إبطالِ الحق وردِّ الصدقِ مما تأتي بهِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(غافر ٢٨).

الجاهل

خصالٌ يسرُ بها الجاهلُ، كلها كائنٌ عليهِ وبالاً: منها، أن يفخر من العلمِ والمروءةِ بما ليس عندهُ. ومنها، أن يَرى بالأخيار من الاستهانة والجفوةِ ما يُشْمتهُ بهم. ومنها، أن يناقِلَ عالماً وديعاً منصفاً لهُ في القولِ فيشتد صوتُ ذلكَ الجاهلِ عليه ثم يُفلِجُهُ نظراؤهُ من الجهالِ حولهُ بشدةِ الصوت. ومنها، أن تفرُطَ منهُ الكلمةُ أو الفِعلةُ المعْجِبةُ للقومِ فيذكرَ بها. ومنها، أن يكون مجلسهُ في المحفِلِ وعند الرئيس فوق مجالسِ أهلِ الفضلِ عليهِ.

ومن الدليلِ على سخافةِ المتكلمِ أن يكون ما يُرى من ضِحكِه ليس على حسَبِ ما عندهُ من القولِ، أو الرجلُ يكلّمُ صاحبهُ فيُجاذبهُ الكلام ليكونَ هو المتكلم، أو يتمنى أن يكون صاحبُهُ قد فرغَ وأنصت لهُ فإذا نصتَ لهُ لم يحسنِ الكلامَ.

ولا يؤمِنَنَّك شرَّ الجاهلِ قرابةٌ ولا جوارٌ ولا إلفٌ. فإنّ أخوَفَ ما يكونُ الإنسانُ لحريقِ النارِ أقربُ ما يكونُ منها، وكذلك الجاهلُ إن جاورك أنصَبكَ، وإن ناسبكَ جنى عليك، وإن ألِفك حمَل عليك ما لا تُطيقُ، وإن عاشرك آذاك وأخافك، مع أنهُ عند الجوعِ سَبُعٌ ضارٍ، وعند الشبعِ ملكٌ فظٌ، وعند الموافقةِ في الدِّين قائدٌ إلى جهنم. فأنت بالهربِ منه أحق منكَ بالهربِ من سُمِّ الأساودِ والحريقِ المخوفِ والدَّينِ الفادحِ والداء العَياء. ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(هود ٤٦).

الغاضب

اعلم أنّ من الناسِ ناساً كثيراً يبلغُ مِن أحدهمِ الغضبُ، إذا غضبَ، أن يحملهُ ذلك على الكُلوحِ والقطوبِ في وجهِ غيرِ مَن أغضبهُ، وسوءِ اللفظ لمن لا ذنب لهُ، والعقوبةِ لمن لم يكن يَهِمُّ بمعاقبتهِ، وشدةِ المعاقبةِ باللسانِ واليد لمن لم يكن يريدُ به إلا دون ذلكَ. ثم يبلغُ به الرضى، إذا رضي، أن يتبرع بالأمر ذي الخطرِ لمن ليس بمنزلةِ ذلك عندهُ، ويُعطيَ مَن لم يكن يُريدُ إعطاءهُ، ويكرمَ من لم يُرد إكرامهُ ولا حق له ولا مودةَ عندهُ.

فاحذر هذا الباب الحذر كله فإنه ليس أحدٌ أسوأ فيه حالاً من أهلِ السلطة الذين يفرِطون باقتدارهم في غضبهم، وبتسرعهم في رضاهم. فإنهُ لو وصفَ بهذه الصفةِ مَن يُلتَبَسُ بعقلهِ أو يتخبَّطُهُ المسُّ أن يعاقبَ عند غضبهِ غير من أغضبهُ ويحبُوَ عند رضاهُ غيرَ من أرضاهُ لكان جائزاً ذلكَ في صفتهِ. وكن من الذين آمنوا ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى ٣٧).

المنانُ

إذا كانت لكَ عند أحدٍ صنيعةٌ، أو كان لك عليه طَوْلٌ فالتمس إحياءَ ذلك بإماتتهِ، وتعظيمَهُ بالتصغيرِ لهُ. ولا تقتصِرَنَّ في قلةِ المنِّ بهِ على أن تقولَ: لا أذكرهُ ولا أُصغي بسمعي إلى من يَذكرهُ، فإنّ هذا قد يستَحيي منهُ بعضُ من لا يوصفُ بعقلٍ ولا كَرَمٍ. ولكنِ احذرْ أن يكونَ في مجالستكَ إياهُ، وما تكلمهُ به، أو تستعينهُ عليهِ، أو تجاريه فيه، شيءٌ من الاستطالة، فإن الاستطالةَ تهدمُ الصنيعةَ وتُكدِّرُ المعروفَ. ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾(المدثر ٦).

المغرم بالنساء

اعلم أنّ مِن أوقعِ الأمورِ في الدِّينِ وأهكِها للجسدِ وأتلفِها للمالِ وأقْتلِها للعقلِ وأزْراها للمروءةِ وأسرعِها في ذهابِ الجلالَةِ والوَقارِ الغرامَ بالنساء.

ومن البلاء على المغرمِ بهِنّ أنهُ لا ينفكّ يكره ويمل ما عندهُ وتطمحُ عيناهُ إلى ما ليسَ عندهُ منهُنّ. وإنما النساء أشباهٌ. وما يتزيَّنُ في العيونِ والقلوبِ من فضلِ مجهولاتهن على معروفاتهن باطلٌ وخُدعةٌ. بل كثيرٌ مما يرغب عنهُ الراغبُ مما عندهُ أفضلُ مما تتوقُ إليهِ نفسهُ منهن. وإنما المرتَغِبُ عما في رحلهِ منهن إلى ما في رحالِ الناسِ كالمرتغبِ عن طعامِ بيتهِ إلى ما في بيوت الناسِ، بل النساءُ بالنساء أشبهُ من الطعامِ بالطعامِ، وما في رحالِ الناسِ من الأطعمةِ أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء.

ومن العجبِ أنّ الرجلَ الذي لا بأس بلُبِّهِ ورأيهِ يرى المرأةَ من بعيدٍ متلفِّفَةً في ثيابها، فيُصَوِّرُ لها في قلبهِ الحُسْنَ والجمالَ حتى تعلَقَ بها نفسُهُ من غير رؤيةٍ ولا خبرٍ مُخبرٍ، ثم لعلهُ يهجُمُ منها على أقبحِ القُبْحِ وأدمِّ الدَّمامةِ، فلا يعِظهُ ذلكَ ولا يقطعُهُ عن أمثالها. ولا يزالُ مشغوفاً بما لم يذُق،

حتى لو لم يبقَ في الأرضِ غيرُ امرأةٍ واحدةٍ، لظنّ أنّ لها شأناً غير شأنِ ما ذاقَ. وهذا هو الحُمقُ والشقاء والسَّفَهُ.

ومَن لم يحْمِ نفسهُ ويمنعها عن الطعامِ والشرابِ والنساء في بعض ساعاتِ شهوتهِ وقدرتهِ، كانَ أيسرَ ما يُصيبهُ من وبالِ ذلكَ انقطاعُ تلكَ اللذاتِ عنهُ بخمودِ نارِ شهوتهِ وضُعفِ حواملِ جسدهِ. وقَلَّ مَن تجدهُ إلا مخادعاً لنفسهِ في أمرِ جسدهِ عند الطعامِ والشرابِ والحِمية والدَّواء، وفي أمرِ مروءتهِ عندَ الأهواء والشهواتِ، وفي أمر دينهِ عندَ الريبَةِ والشُّبهةِ والطمعِ. ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات ٤١).

الكريم واللئيم

عوّد نفسكَ السخاءَ. واعلم أنه سخاءان: سخاوةُ نفسِ الرجلِ بما في يديه، وسخاوتهُ عما في أيدي الناسِ. وسخاوةُ نفسِ الرجلِ بما في يديهِ أكثرهما وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرةُ. وتركهُ ما في أيدي الناسِ أمحضُ في التكرمِ وأبرأ من الدنسِ وأنْزَهُ. فإنْ هو جمعهما فبذلَ وعفَّ فقدِ استكمل الجودَ والكرمَ.

إنّ أهل العقلِ والكرمِ يبتغون إلى كل معروفٍ وصلةً وسبيلاً.

والمودة بين الأخيار سريع اتصالها بطيء انقطاعها، ومثلُ ذلك مثلُ كوبِ الذهب الذي هو بطيء الانكسار سريع الإعادة، هيّن الإصلاح، إن أصابه ثلم أو كسر. والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها، كالكوز من الفخار يكسره أدنى عبث ثم لا وصْل له أبداً. والكريم يمنح الرجل مودتهُ عن لُقيةٍ واحدةٍ أو معرفةِ يومٍ. واللئيم لا يصلُ أحداً إلا عن رغبةٍ أو رهبةٍ. ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾(الإنسان ٩).

وإن أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ويتواصلون عليهما وهما ذات النفس، وذات اليد. فالمتباذلون ذات النفس هم **الأصفياء**، وأما المتباذلون ذات اليد فهم **المتعاونون** الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض. ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا فإنما مثله فيما يبذل ويعطي كمثل الصياد وإلقائه الحب للطير، لا يريد بذلك نفع الطير وإنما يريد نفع نفسه. فتعاطي ذات النفس **أفضل** من تعاطي ذات اليد.

ومن علاماتِ اللئيم المخادعِ أن يكون حسَن القولِ، سيء الفعلِ، بعيد الغضب، قريبَ الحسد، حَمولاً للفحشِ، مجازياً بالحقد، متكلِّفاً للجود، صغير الخطر، متوسِّعاً فيما ليس لهُ، ضيقاً فيما يملكُ. واعلم أن اللئامَ أصبرُ أجساداً، وأنّ الكرامَ هم أصبرُ نفوساً.

الزاهد

إن رأيتَ نفسك تصاغرت إليها الدنيا، أو دعتكَ إلى الزهادةِ فيها على حالِ تعذرٍ من الدنيا عليكَ فلا يغُرَّنَّكَ ذلك من نفسكَ على تلكَ الحال، فإنها ليست بزهادةٍ، ولكنها ضجرٌ واستِخذاءٌ وتغيُّرُ نفسٍ عند ما أعجزَكَ من الدنيا وغضبٌ منكَ عليها مما التوى عليكَ منها. ولو تمَّمت على رفضها وأمسكتَ عن طلبها أوشكتَ أن ترى من نفسكَ من الضجرِ والجزعِ أشدَّ من ضجرِكَ الأولِ بأضعاف. ولكن إذا دعتكَ نفسُكَ إلى رفضِ الدنيا وهي مقبلةٌ عليكَ، فأسرِعْ إلى إجابتها. ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾(القصص ٧٧).

الصابر

ذللْ نفسك بالصبر على جار السوء، وعشيرِ السوء، وجليسِ السوء، فإنّ ذلك مما لا يكادُ يخطئُكَ. واعلم أن الصبر صبرانِ: صبرُ المرءِ على ما يكرهُ، وصبرهُ عما يحب.

alkhaznadarn67@gmail.com

والصبرُ على المكروهِ أكبرهما وأشبههما أن يكون صاحبهُ مضطراً. ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾(المعارج ٥).

وليس الصبرُ الممدوحُ بأن يكون جِلْد الرجلُ وَقَاحاً على الضربِ، أو رِجلُهُ قويةً على المشي، أو يدهُ قويةً على العملِ. فإنما هذا من صفات الحميرِ. ولكنّ الصبر الممدوحَ أن يكونَ للنفسِ غلوباً، وللأمورِ مُحتمِلاً، وفي الضراء متجمّلاً، ولنفسهِ عند الرأي والحِفاظِ مرتبطاً وللحزمِ مؤثراً، وللهوى تاركاً، وللمشقةِ التي يرجو حسن عاقبتِها مستخِفّاً، وعلى مجاهدةِ الأهواء والشهواتِ مواظباً، ولبصيرتهِ بعزمهِ مُنَفِّذاً. ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(فصلت ٣٥).

وإذا تراكمت عليكَ الأعمالُ فلا تلتمسِ الرَّوْحَ في مدافعتها بالروغانِ منها. فإنهُ لا راحةَ لكَ إلا في إصدارها، وإنّ الصبر عليها هو الذي يخفّفها عنكَ، والضجرَ هو الذي يُراكمُها عليكَ.

فتعهد مِن ذلك في نفسكَ خصلةً قد رأيتها تعتري بعضَ أصحابِ الأعمالِ. وذلكَ أنّ الرجلَ يكونُ في أمرٍ من أمرهِ، فيَرِدُ عليهِ شغلٌ آخرُ، أو يأتيهِ شاغلٌ من الناسِ يكرهُ إتيانَهُ فيُكدّرُ ذلكَ بنفسهِ تكديراً يُفسدُ ما كان فيه وما وردَ عليهِ، حتى لا يُحكِمَ واحداً منهُما. ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾(الأحزاب ٤).

فإذا وردَ عليكَ مثلُ ذلكَ فليكن معكَ رأيُكَ وعقلُكَ اللذانِ بهما تختارُ الأمورَ، ثم اختر أولى الأمرين بشُغلكَ، فاشتغلْ بهِ حتى تفرُغَ منهُ. ولا يعظُمنّ عليكَ فوتُ ما فاتَ وتأخيرُ ما تأخّر إذا أعملتَ الرأي معملهُ وجعلتَ شغلَكَ في حقهِ. واجعل لنفسكَ في كل شغلٍ غايةً ترجو القوَّةَ والتَّمامَ عليها.

وكان يقالُ: من ابتلي بمرضٍ في جسدهِ لا يفارقهُ، أو بفراق الأحبةِ والإخوان، أو بالغربةِ حيثُ لا يعرفُ مَبيتاً ولا مَقيلاً ولا يرجو إياباً، أو بفاقةٍ تضطرهُ إلى المسألة، فالحياةُ لهُ موتٌ، والموتُ له راحةٌ. والله يقول:﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾(البقرة ٢١٦).

طالب المروءة

لا يُعجبنكَ إكرامُ من يكرمكَ لمنزلةٍ أو لسلطة، فإن السلطة أوشكُ أمورِ الدنيا زوالاً. ولا يُعجبنكَ إكرامُ مَن يكرمُكَ للمالِ، فإنهُ هو الذي يتلو السلطة في سُرعةِ الزوالِ.

ولا يُعجبنكَ إكرامهم إياكَ للنسب، فإنّ الأنسابَ أقلُّ مناقبِ الخير غَناءً عن أهلها في الدِّينِ والدنيا.

ولكن إذا أُكرمتَ على دِينٍ أو مروءةٍ فذلكَ فليعجبكَ فإنّ المروءةَ لا تزايلُكَ في الدنيا. وإنّ الدِّينَ لا يزايلكَ في الآخرةِ. ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات ١٣).

والرجلُ ذو المروءة قد يُكرمُ على غير مالٍ، كالأسد الذي يُهابُ وإن كان عقيراً. والرجلُ الذي لا مروءةَ لهُ يهانُ وإن كثر مالهُ، كالكلبِ الذي يهونُ على الناسِ وإن هو طُوِّقَ وحُلْخِلَ. وهو لا يَرى معروفاً صنعهُ وإن كان كثيراً، ولو خاطر بنفسه وعرضها في وجوهِ المعروف لم ير ذلك عيباً. بل يعلمُ أنما أخطَرَ الفاني بالباقي، واشترى العظيم بالصغير.

وأغبط الناس عند ذوي العقلِ أكثرهم سائلا مُنجَحاً، ومستجيراً آمناً. فليحسنُ تعاهُدكَ نفسكَ بما تكونُ به للخيرِ أهلاً. فإنك إذا فعلتَ ذلك، أتاك الخيرُ يطلُبكَ، كما يطلبُ الماءُ السَّيْلَ إلى الحُدورة. لدنُياهُ.

ولا تصاحبنّ أحداً، وإن استأنستَ بهِ أخاً ذا قرابةٍ أو أخاً ذا مودةٍ، ولا والداً ولا ولداً إلا بمروءةٍ، فإنّ كثيراً من أهلِ المروءةِ قد يحملهمُ الاسترسالُ والتبَذُّلُ على أن يصحبوا كثيراً من الخلطاء بالإدلالِ والتهاونِ والتبذلِ.

ومن فقدَ من صاحبهِ صُحبةَ المروءةِ ووقارَها وجلالها أحدثَ ذلكَ لهُ في قلبهِ رقةَ شأنٍ وسخفَ منزلةٍ. ولا تلتمس غلبةَ صاحبكَ والظفَر عليه عند كل كلمةٍ ورأي ولا تجترِئَنّ على تقريعهِ بظَفَركَ إذا استبانَ، وحُجتِكَ عليه إذا وضَحَتْ.

وإنّ أقواماً قد يحمِلُهم حبُّ الغلبةِ وسفهُ الرأي في ذلكَ على أن يتعقبوا الكلمةَ بعدما تُنسى، فيلتمسوا فيها الحجةَ، ثم يستطيلوا بها على الأصحابِ. وذلكَ ضُعفٌ في العقلِ ولؤمٌ في الأخلاقِ.

واعلم أنّ الناسَ يخدعونَ أنفسهم بالتعريضِ والتوقيعِ بالرجالِ في التماسِ مثالبِهِم ومساويهم ونقيصتهم. وكل ذلك أبْيَنُ عند سامعيهِ من وَضَح الصبحِ. فلا تكونَنّ من ذلك في غرورٍ ولا تجعلنّ نفسكَ من أهلهِ.

وإنَّ الرجلَ ذا النُّبلِ والمروءَةِ يكونُ خامِلَ الذِّكرِ مُنخَفِضَ المنزلَةِ فتأبى منزلَتُهُ إلاَّ أن تَشُبَّ وترتَفِعَ كالشُّعلَةِ مِنَ النَّارِ يَضرِبُها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً.

فالمرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة، ومن لا مروءة له يحط نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة. وإنّ **الارتفاع إلى المنزلة الشريفة شديدٌ، والانحطاط منه مهينٌ، كالحجر الثقيل: رفعه من الأرض إلى العاتق عسرٌ، ووضعه إلى الأرض هينٌ**. فنحن أحق أن نروم ما فوقنا من المنازل، وأن نلتمس ذلك بمروءتنا. ثم كيف نقنع بها ونحن نستطيع التحول عنها؟

العاقل

لا يستخفُ ذو العقلِ بأحدٍ. وأحق من لم يستخف به ثلاثةٌ: الأتقياءُ والرؤساء والإخوانُ، فإنهُ من استخف بالأتقياء أهلك دينهُ، ومن استخف بالرؤساء أهلك دنياهُ، ومن استخف بالإخوانِ أفسد مروءتهُ.

وأصلُ العقل التثبتُ، وثمرتهُ السلامة، وأصل الورع القناعةُ، وثمرتهُ الظفرُ، وأصل التوفيقِ العملُ، وثمرتهُ النُّجحُ.

ويسلمُ العاقلُ من عظامِ الذنوبِ والعيوبِ بالقناعةِ ومحاسبةِ النفسِ.

ولا تجدُ العاقلَ يُحدثُ من يخافُ تكذيبهُ، ولا يسألُ من يخافُ منعهُ، ولا يعِدُ بما لا يجِدُ إنجازهُ، ولا يرجو ما يعنَّفُ برجائهِ، ولا يَقدُمُ على من يخافُ العجزَ عنهُ.

وهو يُسَخّي بنفسهِ عما يُغبطُ بهِ القوالون خروجاً من عيبِ التكذيبِ، ويسخي بنفسه عما ينالُ السائلون سلامةً من مَذلةِ المسألةِ، ويسخي بنفسهِ عن محمَدَةِ المواعيد براءةً من مذمةِ الخُلْفِ، ويسخي بنفسهِ عن فرحِ الرجاء خوفَ الردّ، ويُسَخِّيهِ عن مراتبِ المقَدِّمين ما يرى من فضائحِ المقصرين.

ومِن أحسنِ ذوي العقولِ عقلاً مَن أحسن تقدير أمرِ معاشه ومعادهِ تقديراً لا يُفسد عليه واحداً منهما نفادُ الآخر، فإن أعياهُ ذلك رفض الأدنى وآثر عليه الأعظم. ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤٣).

وإنّ عقل الرجل ليبين في خصال **ثمان: الأولى**: الرفق. **والثانية**: أن يعرف الرجل نفسه فيحفظها. **والثالثة**: طاعة الملوك، والتحري لما يرضيهم. **والرابعة**: معرفة الرجل موضع سره، وكيف ينبغي أن يطلع عليه صديقه. **والخامسة**: أن يكون على أبواب الملوك أديباً ملق اللسان. **والسادسة**: أن يكون لسره ولسر غيره حافظاً. **والسابعة**: أن يكون على لسانه قادراً، فلا يتكلم إلا بما يأمن تبعته ولا يطلع على سره إلا الثقات. **والثامنة**: أن لا يتكلم في المحافل إلا بما يسأل عنه. فمن اجتمعت فيه هذه الخصال كان هو الداعي الخير إلى نفسه.

السعيد والشقي

حاز الخير رجُلانِ: سعيدٌ ومَرجو. فالسعيد الفالجُ، والمرجو من لم يخصِم. والفالجُ الصالحُ مادام في قيدِ الحياةِ وتعرُّضِ الفتنِ في مُخاصمةِ الخُصَماء من الأهواء والأعداء.

والسعيدُ يُرغبهُ اللهُ في الآخرةِ – يوم يكون الناس صنفين ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾(هود ١٠٥) – حتى يقُول: لا شيء غيرها، فإذا هضمَ دنياهُ وزهدَ فيها لآخرتهِ، لم يحرمهُ الله بذلكَ نصيبهُ من الدنيا ولم ينقصهُ من سرورهِ فيها.

والشقي يرغبهُ الشيطانُ في الدنيا حتى يقول: لا شيء غيرها. فيجعلُ الله له النغِيص في الدنيا التي آثر مع الخزي الذي يلقى بعدها. ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٦٨).

الحازم

الحازمُ لا يأمنُ عدوهُ على حالٍ: إن كان بعيداً لم يأمن إغارته، وإن كان قريباً لم يأمن مواثبتهُ، وإن كان منكشفاً لم يأمن استطرادهُ وكمينهُ، وإن رآه وحيداً لم يأمن مكرَهُ. ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾(النساء ١٠٢).

وكان يقالُ: قارب عدوكَ بعض المقاربة، تنل حاجتك، ولا تقاربهُ كل المقاربةِ، فيجترئ عليك عدوك وتذل نفسك ويرغب عنك ناصركَ. ومثل ذلك مثل العود المنصوبِ في الشمسِ، إن أملتهُ قليلاً زاد ظلهُ، وإن جاوزت الحد في إمالتهِ، نقص الظل.

والظفرُ بالحزمِ، والحزمُ بإجالة الرأي، والرأيُ بتحصينِ الأسرارِ. والسببُ الذي يُدرِكُ به العاجزُ حاجتهُ هو الذي يحولُ بينّ الحازمِ وبين طلِبتهِ.

المتواضع

إن استطعتَ أن تضعَ نفسَكَ دونَ غايتكَ في كل مجلسٍ ومُقامٍ ومقالٍ ورأيٍ وفعلٍ فافعل، فإنّ رفعَ الناس إياكَ فوقَ المنزلةِ التي تحُطّ إليها نفسك، وتقريبَهم إياكَ إلى المجلسِ الذي تباعدتَ منهُ، وتعظيمَهم من أمركَ ما لم تُعظِّم، وتزيينَهم من كلامكَ ورأيكَ وفعلكَ ما لم تُزيِّن هو الجمالُ. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان ١٨).

القسم الثالث
إدارة المال

اقتصارُ السعي إبقاءٌ للراحة، وفي بُعد الهمةِ يكون التعب، ومَن سأل فوق قدرتهِ استحق الحرمانَ، وسوءُ حملِ الغِنى أن يكونَ عند الفرحِ مرحاً، وسوءُ حملِ الفاقةِ أن يكون عند الطلبِ شرهاً، وعارُ الفقر أهونُ من عار الغنى، والحاجةُ مع المحبةِ خيرٌ من الغنى مع البُغضةِ.

والدنيا دولٌ، فما كان لك منها أتاكَ على ضعفكَ، وما كان عليك لم تدفعهُ بقُوتكَ.

وكم قد انتُزعتِ الدنيا ممنِ استمكنَ منها واعتكفت لهُ، فأصبحتِ الأعمالُ أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم، وأخَذَ متاعهم مَن لم يحمدهم، وخرجوا إلى مَن لا يعذُرُهُم. فأصبحنا خلَفاً من بعدهم، نتوقعُ مثلَ الذي نزلَ بهم، فنحنُ إذا تدَبرنا أمورهم، أحِقاءُ أن ننظر ما نغبطهم به فنتبعَهُ وما نخافُ عليهم منه فنجتنبهُ.

والدنيا زُخرفٌ يغلبُ الجوارحَ، ما لم تغلِبهُ الألبابُ. والحكيمُ من يُغضي عنهُ ولم يَشغَل به قلبهُ، اطلَّعَ من أدناهُ فيما وراءهُ، وذكر لواحقَ شرهِ فأكلَ مُرَّهُ وشربَ كَدِرهُ لِيَحلَوْلي لهُ ويصفو في طولٍ من إقامةِ العيش الذي يبقى ويدومُ، غيرَ كاره للرشدِ إن لم يلقهُ برضاهُ، ولم يأتهِ من طريق هواهُ.

وليجتمع في قلبكَ الافتقارُ إلى الناسِ والاستغناءُ عنهم، وليكنِ افتقارُكَ إليهم في لينِ كلمتكَ لهم، وحُسنِ بِشركَ بهم. وليكنِ استغناؤكَ عنهم في نزاهةِ عِرضِكَ وبقاء عِزّكَ.

اطلب الرزق

واغتنم من الخير ما تعجلت، ومن الأهواء ما سوَّفت، ومن النَّصَب ما عاد عليكَ. ولا تفرَح بالبطالةِ، ولا تجبُن عن العملِ.

وسمعت العلماء قالوا: لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكَف، ولا حسبَ كحُسنِ الخلقِ، ولا غنى كالرضى. وأحقُّ ما صُبِر عليه ما لا سبيلَ إلى تغييرِه. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(يونس ١٠٧).

وإنَّ مِنَ الناسِ مَن لا مُروءةَ له وهُمُ الذينَ يَفرَحونَ بالقليلِ ويَرضَونَ بالدُّونِ كالكَلبِ الذي يُصيبُ عَظمًا يابِسًا فَيَفرَحُ به. وأمَّا أهلُ الفَضلِ والمروءةِ فلا يُقنِعُهُمْ القليلُ ولا يَرضَونَ به دونَ أن تَسمُوَ بهم نُفوسُهُمْ إلى ما هم أهلٌ له وهو أيضًا لهم أهلٌ، كالأسَدِ الذي يَفتَرِسُ الأرنَبَ فإذا رأى البعيرَ تَرَكَها وطَلَبَ البَعيرَ. ألا ترى أنَّ الكلبَ يُبَصبِصُ بذنبِهِ حتى تُرمى له الكِسرَةَ مِنَ الخُبزِ فَيَفرَحُ بها وتُقنِعُهُ، وأنَّ الفيلَ المعتَرَفَ بفضلِهِ وقُوَّتِهِ إذا قُدِّمَ إليه عَلَفُهُ لا يَعتَلِفُهُ حتى يُمسَحَ وجهُهُ ويُتَمَلَّقَ له.

فَمَنْ عاشَ ذا مالٍ وكانَ ذا فَضلٍ وإفضالٍ على نفسِهِ وأهلِهِ وإخوانِهِ غيرَ خامِلِ المنزلَةِ فهو وإن قَلَّ عُمرُهُ طويلُ العمرِ. ومَن كانَ في عَيشِهِ ضيقٌ وقِلَّةٌ وإمساكٌ على نفسِهِ وذَويهِ وكانَ خامِلَ المنزلَةِ فالمقبورُ أحيا منه. ومَن عَمِلَ لبطنِهِ وشهواتِهِ وقَنِعَ وتَرَكَ ما سِوى ذلك عُدَّ مِنَ البَهائِمِ.

تحصّن المال

كانَ حكيم يوصي بنيه ومما قاله لهم: يا بَنيَّ إنَّ صاحِبَ الدُّنيا يَطلُبُ ثلاثَةَ أمورٍ لن يُدرِكَها إلاَّ بأربَعَةِ أشياءَ. أمَّا **الثَّلاثَةُ** التي **يَطلُبُ فالسَّعَةُ في الرِّزقِ، والمنزلَةُ في الناسِ، والزَّادُ للآخرَةِ**. وأما **الأربَعَةُ** التي يَحتاجُ إليها في دَرَكِ هذه الثَّلاثَةِ **فاكتِسابُ المالِ** من أحسَنِ وجهٍ يَكونُ، ثم حُسنُ **القِيامِ** على ما اكتَسَبَ منه، ثم **استِثمارُهُ**، ثم **إنفاقُهُ** فيما يُصلِحُ المعيشَةَ ويُرضي الأهلَ والإخوانَ فَيَعودُ عليه نَفعُهُ في الآخرَةِ.

فمَنْ ضَيَّعَ شيئًا من هذه الأحوالِ لم يُدرِكْ ما أرادَ من حاجتِهِ، لأنَّه إن لم يَكتَسِبْ لم يكنْ له مالٌ يَعيشُ به. وإن هو كان ذا مالٍ واكتِسابٍ ثم لم يُحسِنِ القِيامَ عليه أوشَكَ المالُ أن يَفنى ويَبقى مُعدِمًا. وإن هو وَضَعَهُ ولم يَستَثمِرْهُ **لم تَمنَعْهُ قِلَّةُ الإنفاقِ من سُرعَةِ الذَّهابِ. كالكُحلِ الذي لا يُؤْخَذُ منه إلاَّ غُبارُ المِيلِ ثم هو معَ ذلك سَريعٌ فَناؤُهُ.** وإن هو أنفَقَهُ في غيرِ وَجهِهِ ووَضَعَهُ في غيرِ مَوضِعِهِ وأخطَأَ به مَواضِعَ استِحقاقِهِ صارَ بمنزلَةِ الفَقيرِ الذي لا مالَ له. ثم لم يَمنَعْ ذلك أيضًا مالَهُ مِنَ التَّلَفِ بالحوادِثِ والعِلَلِ التي تَجري عليه كَمَحبِسِ الماءِ الذي لا تَزالُ المياهُ تَنصَبُّ فيه، فإن لم يكن له مَخرَجٌ ومَفيضٌ ومُتَنَفَّسٌ يَخرُجُ منه الماءُ بقَدَرِ ما يَنبَغي خَرِبَ وسالَ ونَزَّ من نَواحٍ كثيرَةٍ وربَّمَا انبَثَقَ [انفجر] البَثقَ العَظيمَ فَذَهَبَ الماءُ ضَياعًا.

اعرف قدره

ما التَّبَعُ والأعوانُ والصديقُ والحشمُ إلا للمالِ. ووجدت من لا مال له، إذا أراد أمراً قعد به العدم عمّا يريده، كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الصيف، لا يمر

إلى نهر ولا يجري إلى مكان، فتشربه أرضه. ولا يُظهرُ المروءةَ إلا المالُ. ولا الرأي ولا القوةُ إلا بالمال. ومَن لا إخوانَ لهُ فلا أهلَ لهُ، ومَن لا أولاد لهُ فلا ذِكر لهُ، ومن لا عقلَ لهُ فلا دنيا لهُ ولا آخرة، ومن لا مال لهُ فلا شيء لهُ.

وإذا أصابت الرجل الفقير **الحاجة** إلى ما في أيدي الناس نبذه إخوانه، وهان على ذوي قرابته، فربما اضطرّته المعيشة وما يحتاج إليه لنفسه وعياله إلى طلب ذلك بما يغرر فيه بدينه، فيهلك، فإذا هو قد خسر الدنيا والآخرة، فإنّ حاله كحال الشجرة النابتة في السباخ، المأكولة من كل جانب.

والفقرُ داعيةٌ إلى صاحبهِ مقتَ الناسِ، وهو مسْلَبةٌ للعقلِ والمروءةِ، ومذهبةٌ للعلمِ والأدبِ، ومعدِنٌ للتُّهمةِ، ومجمعةٌ للبلايا.

ووجدت الفقر رأس كل بلاء، وجالباً إلى صاحبه كل مقت، ومعدن النميمة. وهو مع ذلك مسلبة للعقل والمروءة، ومذهب للعلم والأدب، ومطيّة للتهمة، ومقطعة للحياء. ومن نزل به الفقرُ والفاقةُ لم يجِد بُدّاً من تركِ الحياءِ، ومن ذهَبَ حياؤهُ ذهبَ سرورهُ، ومن ذهبَ سرورهُ مقتَ، ومن مقتَ أوذي، ومن أوذي حزنَ، ومن حزنَ فقد ذهبَ عقلهُ واستُنكرَ حفظُهُ وفهمهُ. ومن أصيبَ في عقله وفهمهِ وحفظهِ كان أكثر قولهِ وعملهِ فيما يكون عليه لا لهُ.

فإذا افتقر الرجلُ اتهمهُ من كان له مؤتمناً، وأساء به الظن من كان يظن به حسناً، فإذا أذنب غيرهُ ظنوهُ وكان للتهمةِ وسوء الظنّ موضعاً.

وليس من خَلةٍ هي للغني مدحٌ إلا وهي للفقير ذمّ وعيبٌ، فإن كانَ شجاعاً سُمّي أهوج، وإن كانَ جواداً سمي مبذرا، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمي بليداً، وإن كان لَسِناً سمي مهذاراً، وإن كان صموتاً سمي عَيِيّاً.

فالموت أهون من الحاجة التي تحوج صاحبها إلى المسألة، ولا سيما مسألة الأشحاء واللئام، فإن الكريم لو كلف أن يدخل يده في فم الأفعى، فيخرج منه سماً فيبتلعه كان ذلك أهون عليه وأحب إليه من مسألة البخيل اللّئيم.

وربما كره الرجل المسألة وبه حاجة فحملته على السرقة والنهب والظلم. والسرقة والنهب والظلم شرّ من الفاقة التي راغ عنها. فإنه قد قيل: الخرس خير من اللسان بالكذب، والغبن خيرٌ من القهر والظلم، والفاقة خير من السعة والنعمة من أموال الناس.

وليس يفرحُ العاقلُ بالمالِ الكثير، ولا يُحزنهُ قِلتهُ. ولكن مالهُ عقلهُ وما قدَّم من صالحِ عملهِ. وأغنى الناس أكثرهم إحساناً. ولا تعُدَّ غنياً من لم يشارك في مالهِ، ولا تعد نعيماً ما كان فيه تنغيصٌ وسوءُ ثناء، ولا تعُدَّ الغُنمَ غنماً إذا ساق غُرماً ولا الغرمَ غُرماً إذا ساقَ غُنماً.

وقيل في أشياء ليس لها ثباتٌ ولا بقاءٌ: ظلُّ الغمامِ، وحُلَّة الأشرارِ، وعِشق النساء، والنَّبأ الكاذبُ، والمالُ الكثيرُ.

ووجدنا البلايا في الدنيا إنما يسوقُها إلى أهلها الحِرصُ والشرهُ. ولا يزالُ صاحبُ الدنيا يتقلبُ في بَلِيَّةٍ وتعبٍ، لأنه لا يزالُ بخَلةِ الحرصِ والشرهِ. ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران ٢٧).

القسم الرابع

إدارة الكلام

اعلم أنه ستمُرُ عليكَ أحاديثُ تُعجبكَ: إما مليحةٌ وإما رائعةٌ. فإذا أعجبتكَ كنتَ خليقاً أن تحفظها، فإنّ الحِفظ موكّلٌ بما مَلُح وراعَ. وستحرِصُ على أن تعجَبَ منها الأقوامُ. فإنّ الحِرصَ على ذلك التعجبِ من شأنِ الناسِ. وليس كل معجبٍ لكَ معجباً لغيرِكَ.

فإذا نشرتَ ذلك المرةَ والمرتينِ، فلم ترهُ وقعَ من السامعينَ موقعَهُ منكَ فازدجر عن العودةِ. فإنّ العَجَبَ من غيرِ عجيبٍ سُخفٌ شديد. وقد رأينا من الناسِ من يعلَقُ الشيء ولا يُقلعُ عنهُ وعنِ الحديثِ بهِ، ولا يمنعُهُ قِلةُ قبولِ أصحابهِ لهُ من أن يعودَ إليه ثم يعودَ.

ثم انظر الأخبار الرائعةَ فتحفظ منها. فإن الإنسان من شأنه الحرصُ على الأخبارِ، ولا سيّما ما راعَ منها، فأكثرُ الناسِ مَن يحدّثُ بما سمِع، ولا يبالي ممن سمعَ. وذلك مفسدةٌ للصدقِ ومَزْراةٌ بالمروءةِ، فإن استطعتَ ألا تخبرَ بشيء إلا وأنتَ بهِ مصدقٌ، ولا يكونُ تصديقكَ إلا ببرهانٍ، فافعل.

ولا تقل كما يقولُ السفهاء: أخبرُ بما سمعتُ. فإنّ الكذب أكثرُ ما أنتَ سامعٌ، وإنّ السفهاء أكثرُ مَن هو قائلٌ. وإنك إن صرتَ للأحاديثِ واعياً وحاملاً كان ما تعي وتحملُ عن العامةِ أكثر مما يخترعُ المخترعُ بأضعافٍ.

واعلم أن لسانك أداةٌ مُصْلَتَةٌ، يتغالبُ عليهِ عقلُكَ وغضبكَ وهواك وجهلكَ. فكُل غالبٍ مستمتعٌ به وصارفهُ في محبتهِ، فإذا غلبَ عليهِ عقلكَ فهو لكَ، وإن غلبَ عليه شيءٌ من أشباهِ ما سميتُ لك فهو لعدوّكَ. فإنِ استطعتَ أن تحتفظ به وتصونهُ فلا يكونَ إلا لكَ، ولا يستولي عليهِ أو يشاركَكَ فيه عدوُّكَ، فافعل. ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق ١٨).

واعلم أن خفضَ الصوتِ وسكون الريحِ ومشيَ القصدِ من دواعي المودةِ، إذا لم يخالط ذلك كِبر ولا عُجبٌ. أما العجبُ فهو من دواعي المقتِ والشَّنَآن. ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾(لقمان ١٩).

ولا يكونَنّ من خلقك أن تبتدئ حديثاً ثم تقطعهُ وتقولَ: سوفَ، كأنك روَّأت فيه بعد ابتدائك إياه. وليكن تروّيكَ فيه قبل التفوهِ بهِ. فإنّ احتِجانَ الحديثِ بعد افتتاحه سُخْفٌ وغَمٌّ.

واخزُنْ عقلكَ وكلامكَ إلا عند إصابةِ الموضعِ. فإنهُ ليس في كل حينٍ يحسنُ كلُّ صوابٍ، وإنما تمام إصابةِ الرأي والقولِ بإصابةِ الموضعِ. فإنْ أخطأك ذلك أدخلتَ المحنة على عقلك وقولكَ حتى تأتيَ به إن أتيتَ بهِ في غيرِ موضعهِ وهو لا بهاء ولا طلاوةَ لهُ.

وإذا جعل الكلامُ مثلاً، كان ذلك أوضحَ للمنطقِ وأبينَ في المعنى وآنق للسمعِ وأوسعَ لشعوبِ الحديثِ. ولا يتِمُّ حسنُ الكلامِ إلا بحسنِ العملِ، كالمريض الذي قد علمَ دواء نفسهِ، فإذا هو لم يتداو به لم يُغنهِ علمهُ.

وليعرف إخوانك والعامةُ أنكَ، إن استطعتَ، إلى أن تفعلَ ما لا تقولُ أقربُ منك إلى أن تقولَ ما لا تفعلُ. فإنّ فضلَ القولِ على الفعلِ عارٌ وهُجنةٌ، وفضلَ الفعلِ على القولِ زينةٌ. ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(الصف ٣).

وأنتَ حقيقٌ فيما وعدتَ من نفسكَ أو أخبرتَ بهِ صاحبكَ أن تحتجنَ بعض ما في نفسكَ، التماساً لفضلِ

alkhaznadarn67@gmail.com

الفعلِ على القولِ، وتحرزاً بذلك عن تقصيرِ فعلٍ إن قصَّرَ، وقلَّما يكونُ إلا مُقصراً. واعلم أن فضلَ الفعلِ على القولِ زينةٌ، وفضل القولِ على الفعلِ هُجنةٌ، وأن إحكامَ هذه الخَلةِ من غرائبِ الخِلال.

ولا تُجالسِ امرأ بغيرِ طريقتهِ، فإنكَ إن أردتَ لقاءَ الجاهلِ بالعلمِ، والجافيَ بالفقهِ، والعَيِيَّ بالبيانِ لم تَزِد على أن تضيعَ علمكَ وتؤذي جليسكَ بحملكَ عليهِ ثقلَ ما لا يعرفُ وغَمّكَ إياهُ بمثلِ ما يغتَمُّ بهِ الرجلُ الفصيحُ من مخاطبةِ الأعجمي الذي لا يفقهُ عنهُ.

واعلم أنه ليس من علمٍ تذكرهُ عند غيرِ أهلهِ إلا عابوه، ونصبوا لهُ ونقضوهُ عليكَ، وحرَصوا على أن يجعلوهُ جهلاً، حتى إنّ كثيراً من اللهو واللعبِ الذي هو أخفُ الأشياء على الناسِ ليحضرُهُ مَن لا يعرفهُ فيثقُلُ عليهِ ويغتمّ به.

وإذا كنتَ في قومٍ ليسوا بلغاء ولا فُصحاء، فدعِ التطاولَ عليهم بالبلاغةِ والفصاحة.

اعرِف عوراتك. وإياك أن تُعرّضَ بأحد فيما ضارعَها. وإذا ذُكِرتْ مِن أحدٍ خليقةٌ فلا تناضل عنه مناضلةَ المدافعِ عن نفسهِ المصغّرِ لما يَعيبُ الناسُ منهُ فتُتَّهَمَ بمثلها. ولا تُلِحَّ كل الإلحاحِ. وليكن ما كان منك في غيرِ اختلاطٍ، فإنّ الاختلاط من محققاتِ الرِّيبِ.

واعلم أنهُ يكادُ يكونُ لكل رجلٍ غالبةُ حديثٍ لا يزالُ يُحدثُ به: إما عن بلدٍ من البلدانِ أو ضربٍ من ضروبِ العلمِ أو صنفٍ من صنوفِ الناسِ أو وجهٍ من وجوهِ الرأي. وعندما يغرمُ به الرجلُ من ذلك يبدو منهُ السّخفُ ويعرفُ منهُ الهوى، فاجتنب ذلك في كل موطنٍ، ثم عند الرئيس خاصةً.

وإذا كنتَ في جماعة قومٍ أبداً فلا تعُمَّنَّ جيلاً من الناسِ أو أمةً من الأمم بشتمٍ ولا ذَمٍّ. فإنك لا تدري لعلك تتناولُ بعضَ أعراضِ جُلسائكَ مخطئاً، فلا تأمنَ مكافأتهم، أو متعمّداً فتُنسَبَ إلى السفهِ. ولا تذمَّنّ مع ذلك اسماً من أسماء الرجالِ أو النساء بأن تقولَ إنّ هذا لقبيحٌ من الأسماء. فإنكَ لا تدري، لعلّ ذلك غيرُ موافقٍ لبعض جلسائكَ، ولعلهُ يكونُ بعضَ أسماء الأهلينَ والحُرُمِ. ولا تستصغرنّ من هذا شيئاً، فكل ذلك يجرحُ في القلبِ. وجُرحُ اللسانِ أشدُّ من جرحِ اليد.﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾(الحجرات ١١).

واعلم أنهُ ليس كلُ من كان لكَ فيه هوى، فذَكَرهُ ذاكرٌ بسوء وذكرتهُ أنتَ بخيرٍ ينفعهُ ذلكَ. بل عسى أن يضرهُ. فلا يستخِفَّنكَ ذكر أحدٍ من صديقكَ أو عدوك إلا في مواطنِ دَفعٍ أو محاماةٍ. فإنّ صديقكَ إذا وثِق بكَ في مواطنِ المحاماةِ لم يحفِلْ بما تركتَ مما سوى ذلكَ، ولم يكن لهُ عليكَ سبيلُ لائمةٍ.

فضل الصمت

اعلم أنّ البغضةَ خوفٌ، وأنّ المودةَ أمنٌ، فاستكثر من المودةِ صامتاً، فإنّ الصمت سيدعوها إليكَ. وإذا ناطقتَ فناطِقْ بالحسنى، فإنّ المنطِقَ الحَسَنَ يزيدُ في وُدِّ الصديق ويَسْتَل سَخيمةَ الوَغرِ.

ولا تكوننَّ نزرَ الكلام والسلامِ، ولا تبلُغنّ بهما إفراطَ الهشاشةِ والبشاشةِ. فإنّ إحداهُما من الكِبْرِ والأخرى من السُّخف.

وإن غلِبْتَ على الكلامِ وقتاً فلا تُغلَبَنّ على السكوتِ، فإنهُ لعلهُ يكونُ أشدّهما لكَ زينةً، وأجْلَبَهما إليكَ للمودةِ، وأبقاهُما للمهابةِ، وأنفاهما للحسدِ.

وقد اجتمع في بعض الزمان ملوك الأقاليم من الصين والهند وفارس والروم، وقالوا ينبغي أن يتكلم كل واحدٍ منا بكلمة تدوَّن عنه على غابر الدهر. فقال ملك الصين: **أنا على ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت**. وقال ملك الهند: **عجبت لمن يتكلم بالكلمة فإن كانت له لم تنفعه، وإن كانت عليه أوبقته**. وقال ملك فارس: أنا **إذا تكلمت بالكلمة ملكتني، وإذا لم أتكلم بها ملكتها**. وقال ملك الروم: **ما ندمت على ما لم أتكلم به قط، ولقد ندمت على ما تكلمت به كثيراً**. والسكوت عند الملوك أحسن من الهذر الذي لا يرجع منه إلى نفع. وأفضل ما استظل به الإنسان لسانه.

الحذر الهزل والمراء

إن آثرت أن تُفاخر أحداً ممن تستأنسُ إليهِ في لهو الحديثِ فاجعل غايةَ ذلك الجد، ولا تعتَدْ أن تتكلم فيهِ بما كان هزلاً، فإذا بلغهُ أو قاربهُ فدَعْهُ.

ولا تخلِطَنّ بالجِد هزلاً، ولا بالهزلِ جداً. فإنكَ إن خلطتَ بالجد هزلاً هجّنتهُ، وإن خلطتَ بالهزلِ جداً كدّرتهُ. غير أني قد علمتُ موطناً واحداً إن قدرتَ أن تستقبلَ فيه الجد بالهزلِ أصبتَ الرأي وظهرتَ على الأقرانِ: وذلك أن يتوردك متوردٌ بالسفهِ والغضبِ وسوء اللفظِ، فتجيبهُ إجابة الهازلِ المداعبِ، برحبٍ من الذرعِ، وطلاقةٍ من الوجهِ، وثباتٍ من المنطقِ.

واحذرِ المِراءَ وأغربْهُ، ولا يمنعنَّكَ حَذرُ المراء من حُسنِ المناظرةِ والمجادلةِ. واعلم أن الماري هو الذي لا يريدُ أن يتعلمَ ولا أن يُتعلمَ منهُ.

فإن زعمَ زاعمٌ أنهُ مُجادلٌ في الباطلِ عن الحق، فإنّ المجادل، وإن كانَ ثابتَ الحُجةِ ظاهرَ البينةِ حاضرَ الذهنِ، فإنهُ يُخاصِمُ إلى غير قاضٍ، وإنما قاضيهِ الذي لا يعدِلُ بالخصومةِ إلا إليه عَدْلُ صاحبهِ وعقلُهُ. فإن آنس أو رجا عندَ صاحبهِ عدلاً يقضي بهِ على نفسهِ فقد أصابَ وجه أمرهِ، وإن تكلم على غيرِ ذلك كان مماريا.

ولا تعتذرنّ إلا إلى من يُحِبُّ أن يجد لكَ عذراً، ولا تستعينّ إلا بمن يحب أن يُظفِركَ بحاجتكَ، ولا تُحدِّثنَ إلا من يرى حديثكَ مغنماً، ما لم يغلِبكَ اضطرارٌ.

وإذا اعتذر إليكَ معتذرٌ، فتَلَقَّهُ بوجهٍ مشرقٍ وبِشرٍ ولسانٍ طلقٍ إلا أن يكونَ ممن قطيعتهُ غنيمةٌ.

كن مستمعا جيدا ومجيبا ملسنا

تعلَّمْ حُسنَ الاستماعِ كما تتعلمُ حسنَ الكلامِ. ومن حسنِ الاستماع إمهالُ المتكلمِ حتى ينقضي حديثهُ، وقلةُ التلفّت إلى الجوابِ، والإقبالُ بالوجهِ والنظر إلى المتكلمِ، والوعيُ لما يقولُ.

وإذا كلمكَ الرئيس فأصغِ إلى كلامهِ. ولا تشغلْ طرفَكَ عنهُ بنظرٍ إلى غيرهِ، ولا أطرافكَ بعملٍ، ولا قلبكَ بحديثِ نفسٍ. واحذر هذه الخَصلةَ من نفسكَ، وتعاهدْها بجهدك.

واعلم، فيما تكلمُ بهِ صاحبكَ، أنّ مما يُهَجِّنُ صوابَ ما يأتي بهِ، ويَذهبُ بطعمهِ وبهجتهِ، ويُزري بهِ في قَبولهِ، عجلتَكَ بذلك، وقطعَكَ حديثَ الرجل قبل أن يُفضيَ إليكَ بذاتِ نفسِهِ. ومن الأخلاقِ السيئةِ على كل حالٍ مغالبةُ الرجلِ على كلامهِ والاعتراضُ فيهِ، والقطعُ للحديثِ.

ومن الأخلاقِ التي أنتَ جديرٌ بتركها إذا حدَّث الرجلُ حديثاً تعرفهُ، أو أخبر خبراً قد سمعتهُ ألا تسابقهُ إليه وتفتحَهُ عليهِ وتشاركهُ فيهِ ولا تتعقبهُ عليه، حتى كأنكَ تُظهر للناس أنك تريدُ أن يعلموا أنكَ تعلمُ مثل الذي يعلمُ، فإنّ في ذلك خفةً وشحاً وسوءَ أدبٍ وسخفاً. وما عليكَ أن

تُهَنِّئَهُ بذلكَ وتُفرِدَه بهِ. وهذا البابُ من أبوابِ البخلِ. وأبوابه الغامضةُ كثيرةٌ.

وليعرفِ العُلماءُ حينَ تُجالسهمُ أنكَ على أن تسمعَ أحرصُ منكَ على أن تقولَ.

وإن سمعت من صاحبكَ كلاماً أو رأيتَ منهُ رأياً يعجبُكَ فلا تنتحلهُ تزيناً به عند الناسِ. واكتفِ من التزينِ بأن تجتني الصوابَ إذا سمعتهُ، وتنسبهُ إلى صاحبهِ. واعلم أنّ انتحالَك ذلكَ مسخطةٌ لصاحبكَ، وأنّ فيه مع ذلك عاراً وسُخفاً. فإن بلغَ بك ذلكَ أن تُشيرَ برأي الرجلِ وتتكلمَ بكلامهِ وهو يسمعُ جمعتَ مع الظلمِ قلةَ الحياء. وهذا من سوء الأدبِ الفاشي في الناسِ.

ومن تمام حسنِ الخلقِ والأدبِ في هذا الباب أن تسخو نفسُكَ لأخيكَ بما انتحل من كلامك ورأيكَ، وتنسبَ إليه رأيهُ وكلامهُ، وتُزينهُ مع ذلك ما استطعتَ.

واعلم أنكَ ستسمعُ من جلسائك الرأيَ والحديثَ تُنكرُهُ وتستجفيهِ وتستشنعُهُ من المتحدِّث بهِ عن نفسهِ أو غيرهِ، فلا يكوننّ منكَ التكذيبُ ولا التسخيفُ لشيءٍ مما يأتي به جليسك. ولا يُجَرِّئَنكَ على ذلكَ أن تقولَ: إنما حدَّثَ عن غيرهِ، فإنّ كل مردودٍ عليهِ سيمتعِضُ من الردّ. وإن كانَ في القومِ من تكرهُ أن يستقرَّ في قلبهِ ذلك القولُ لخطأ تخافُ أن يُعقدَ عليه، أو مضرةٍ تخشاها على أحدٍ فإنكَ قادرٌ على أن تنقضَ ذلك في سترٍ، فيكونَ ذلك أيسرَ للنقضِ وأبعدَ للبِغْضةِ.

وإذا سأل السائلُ غيرك فلا تكوننّ أنت المجيبَ عنهُ. فإن استِلابكَ الكلامَ خفةٌ بكَ واستخفافٌ منك بالمسؤولِ وبالسائلِ. وما أنتَ قائلٌ إن قال لكَ السائلُ: ما إياك سألتُ؟ أو قال لكَ المسؤولُ عندَ المسألةِ يعادُ له بها: دونكَ فأجب.

وإذا لم يقصدِ السائلُ في المسألةِ لرجلٍ واحدٍ وعمَّ بها جماعةَ مَن عندهُ فلا تُبادِرَنَّ بالجواب، ولا تسابقِ الجلساءَ، ولا تواثب بالكلام مواثبةً. فإن ذلك يجمعُ مع شَيْنِ التكلّفِ والخفة أنكَ إذا سبقتَ القومَ إلى الكلامِ صارُوا لكلامكَ خُصماءَ فتعقَّبوهُ بالعيبِ والطعنِ. وإذا أنتَ لم تعجَلْ بالجوابِ وخلَّيتَهُ للقومِ، اعترضْتَ أقاويلَهم على عينكَ، ثم تدبرتها وفكّرتَ في ما عندك، ثم هيأتَ من تفكيركَ ومحاسنِ ما سمعتَ جواباً رضياً، ثم استدبرت به أقاويلهم حين تُصيخُ إليك الأسماعُ و يهدأ عنكَ الخصُومُ.

وإن لم يبلغكَ الكلامُ حتى يُكتفى بغيركَ، أو ينقطع الحديثُ قبلَ ذلكَ، فلا يكونُ من العيبِ عندك ولا من الغبنِ في نفسكَ فوتُ ما فاتكَ من الجوابِ. فإنّ صيانةَ القولِ خيرٌ من سوء وضعهِ، وإنّ كلمةً واحدةً من الصوابِ تصيبُ موضعها خيرٌ من مئةِ كلمةٍ تقولها في غيرِ فُرَصِها ومَواضعها. مع أن كلامَ العجلةِ والبِدارِ مُوَكَّلٌ بهِ الزللُ وسوءُ التقدير، وإن ظنّ صاحبهُ أنهُ قد أَتقن وأَحكمَ.

واعلم أن هذه الأمورَ لا تُدركُ ولا تُملكُ إلا برحبِ الذَّرعِ عند ما قيل وما لم يقل، وقلةِ الإعظامِ لما ظهرَ من المروءةِ وما لم يظهر، وسخاوةِ النفسِ عن كثيرٍ من الصوابِ مخافةَ الخلافِ والعجلةِ والحسدِ والمراءِ.

القسم الخامس

إدارة الصداقة والعداوة

من المعونة على تسلية الهمومِ وسكون النفسِ لقاءُ الأخِ أخاهُ، وإفضاءُ كل واحدٍ منهما إلى صاحبهِ ببثّهِ. وإذا فُرِّق بين الأليف وأليفهِ فقد سُلِبَ قرارهُ وحُرِمَ سرورَه. ولا تعتَدَّ من الحياةِ ما كان في فراقِ الأحبة.

لذا قيل: إن أولى الناس بفضلِ السرورِ وكرمِ العيشِ وحسنِ الثناء من لا يبرَحُ رحلُه من إخوانهِ وأصدقائه من

الصالحين موطوءاً، ولا يزال عندهُ منهم زحامٌ، ويسرهم ويسرونهُ ويكون من وراء حاجاتهم وأمورهم، فإنّ الكريم إذا عثر لم يستقِل إلا بالكرامِ، كالفيلِ إذا وحِل لم يستخرجهُ إلا الفِيَلةُ.

وليس في الدنيا سرورٌ يعدلُ صحبةَ الإخوانِ، ولا فيها غمٌّ يعدِلُ غمَّ فقدهم. ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾(الحجر ٤٧).

أدب الصداقة

اعلم أنّ إخوانَ الصدقِ هم خيرُ مكاسبِ الدنيا، هم زينةٌ في الرخاء، وعُدَّةٌ في الشدةِ، ومعونةٌ على خيرِ المعاشِ والمعادِ. فلا تُفَرِّطَنَّ في اكتسابهم وابتغاء الوُصُلاتِ والأسبَابِ إليهم.

واعلم أنكَ واجدٌ رغبَتَكَ من الإخاء عند أقوامٍ قد حالت بينكَ وبينهم بعضُ الأُبَّهَةِ التي قد تعتري بعض أهلِ المروءاتِ فتحجِزُ عنهم كثيراً ممن يرغبُ في أمثالهم. فإذا رأيتَ أحداً من أولئكَ قد عثَرَ بهِ الدهرُ فأَقِلْهُ.

وابذل لصديقكَ دمكَ ومالك، ولمعرفتكَ رِفدكَ ومحضركَ، وللعامةِ بِشْركَ وتحنُّنكَ، ولعدوك عدلكَ وإنصافكَ، واضنن بدينكَ وعِرضكَ على كل أحدٍ.

واحذر خصومةَ الأهل والولدِ والصديق والضعيفِ، واحتجَّ عليهم بالحُجج. واحفظ قولَ الحكيمِ الذي قالَ: لتكُن غايتُكَ فيما بينكَ وبينَ عدوكَ العدلَ، وفيما بينكَ وبينَ صديقكَ الرضاء. وذلك أن العدو خصمٌ تصرعهُ بالحجةِ وتغلبهُ بالحُكَّامِ، وأنّ الصديقَ ليس بينكَ وبينهُ قاضٍ، فإنما حَكَمُهُ رضاهُ.

وكان يقالُ: وقِّر من فوقك، ولِن لمن دونك، وأحسِنْ مؤاتاة أكفائك. وليكن آثرَ ذلك عندك مؤاتاةُ الإخوان، فإنّ ذلك هو الذي يشهد لك بأنَّ إجلالك من فوقك ليس بخضوعٍ منك لهم، وأنَّ لينكَ لمن دونك ليس لالتماسِ خِدمتهم.

واجعل غاية تشبُّثكَ في مؤاخاةِ من تؤاخي ومواصلةِ من تواصلُ توطينَ نفسكَ على أنه لا سبيل لكَ إلى قطيعةِ أخيكَ، وإن ظهر لكَ منهُ ما تكرهُ، فإنهُ ليس كالمملوكِ تعتقهُ متى شئتَ أو كالمرأة التي تُطلقها إذا شئتَ، ولكنهُ عِرضُكَ ومروءتكَ. فإنما مروءةُ الرجلِ إخوانهُ وأخدانهُ. ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات ١٠).

فإن عثر الناسُ على أنكَ قطعتَ رجلاً من إخوانكَ، وإن كنتَ مُعْذِراً، نزلَ ذلك عند أكثرهم بمنزلةِ الخيانةِ للإخاء والملالِ فيهِ. وإن أنتَ معَ ذلك تصبرتَ على مُقارَّتِهِ على غير الرضى عادَ ذلكَ إلى العيبِ والنقيصةِ. فالاتئادَ الاتئاد والتثبتَ التثبتَ.

وإذا نظرتَ في حال من ترتئيهِ لإخائك، فإن كان من إخوانِ الدينِ فليكن فقيهاً غير مراءٍ ولا حريصٍ، وإن كان من إخوانِ الدنيا فليكن حراً ليس بجاهلٍ ولا كذّابٍ ولا شريرٍ ولا مَشْنوعٍ. فإنّ الجاهل أهلٌ أن يهرُبَ منهُ أبواهُ، وإن الكذّابَ لا يكونُ أخاً صادقاً، لأن الكذب الذي يجري على لسانهِ إنما هو من فضولِ كذبِ قلبهِ، وإنما سمي الصَّديقُ من الصدقِ. وقد يُتَّهمُ صدقُ القلبِ وإن صدقَ اللسانُ، فكيفَ إذا ظهرَ الكذبُ على اللسانِ؟ وإنّ الشريرَ يُكسبكَ العدو، ولا حاجةَ لكَ في صداقةٍ تجلبُ العداوةَ. وإنّ المشنوعَ شانعٌ صاحبَهُ.

واعلم أنّ انقِباضكَ عن الناسِ يُكسبكَ العداوةَ. وأنّ انبساطكَ إليهم يكسبكَ صديق السوء. وسوءُ الأصدقاء أضرُّ من بُغضِ الأعداء. فإنك إن واصلتَ صديقَ السوء أعيَتْكَ جرائرُهُ، وإن قطعتَهُ شانكَ اسمُ القطيعةِ، وألزمَكَ ذلك مَن يرفع عيبكَ ولا ينشُرُ عذركَ. فإنّ المعايبَ تصيب والمعاذيرَ لا تصيب.

وعلى العاقلِ أن يجعل الناسَ طبقتينِ متباينتينِ، ويلبس لهم لباسينِ مختلفينِ ولا عيشَ ولا مروءةَ إلا بهما: فطبقةٌ من العامة يلبسُ لهم لباسَ انقباضٍ وانحجاز وتحفظٍ في كل كلمةٍ وخطوةٍ، فلا يلقَونكَ إلا متحفِّظاً متشدِّداً متحرّزاً مستعداً. وطبقةٌ من الخاصة الثقاتِ من أصدقائك يخلعُ عندهم لباسَ التشدد ويلبسُ لهم لباس الأنسة واللَّطَفة والبِذلة والمفاوضة فتلقاهمُ بذاتِ صدركَ وتُفضي إليهم بمصُونِ حديثكَ وتضعُ عنكَ مؤونةَ الحذرِ والتحفظِ فيما بينكَ وبينهم. ولا يُدخل في هذه الطبقة إلا واحداً من الألف، وكلهم ذو فضلٍ في الرأي، وثقةٍ في المودة، وأمانةٍ في السر، ووفاءٍ بالإخاء. فأهل هذه الطبقةِ، الذين هم أهلها، قليلٌ من قليلٍ حقاً، لأن ذا الرأي لا يدخلُ أحداً من نفسهِ هذا المدخلَ إلا بعد الاختبارِ والتكَشُّفِ والثقةِ بصدقِ النصيحةِ ووفاء العهدِ.

وإني مخبركَ عن صاحبٍ لي كانَ من أعظمِ الناسِ في عيني، وكان رأسُ ما أعظَمَهُ في عيني صِغَرَ الدنيا في عينهِ. كان خارجاً من سلطانِ بطنهِ، فلا يتشهَّى ما لا يجِدُ، ولا يُكثِرُ إذا وجَدَ. وكان خارجاً من سلطانِ فرجهِ، فلا يدعو إليه ريبةً، ولا يستخِفَّ له رأياً ولا بدناً. وكان خارجاً من سلطان لسانهِ، فلا يقولُ ما لا يعلمُ، ولا يُنازِعُ فيما يعلمُ. وكان خارجاً من سلطانِ الجهالةِ، فلا يُقْدِمُ أبداً إلا على ثقةٍ بمنفعة.

كان أكثرَ دهرهِ صامتاً. فإذا نطق بَذَّ الناطقينَ. كان يُرى متضاعفاً مستضعَفاً، فإذا جاء الجِدُّ فهو الليثُ عادياً. كان لا يدخلُ في دعوى، ولا يشتركُ في مِراءٍ، ولا يُدلي بحُجةٍ حتى يرى قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً.

وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذرُ في مثلهِ حتى يعلمَ ما اعتذارهُ. وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عندهُ البرء. وكان لا يستشير صاحباً إلا من يرجو عندهُ النصيحةَ. وكان لا يتبرمُ، ولا يتسخطُ، ولا يتشهَّى، ولا يتشكَّى. وكان لا ينقِمُ على الوَلِيّ، ولا يغفُلُ عن العدو، ولا يخُصّ نفسهُ دونَ إخوانهِ بشيءٍ من اهتمامهِ وحيلتهِ وقوَّتهِ.

فعليكَ بهذه الأخلاقِ إن أطقتَ، ولن تُطيقَ، ولكنّ أخذَ القليلِ خيرٌ من تركِ الجميعِ. واعلم أن خيرَ طبقاتِ أهل الدنيا طبقةٌ أصِفها لكَ: مَن لم ترتفعْ عن الوضيع ولم تتَّضِعْ عن الرفيعِ.

مؤاساة الصديق

إذا نابت أخاكَ إحدى النوائبِ من زوالِ نعمةٍ أو نزولِ بَلِيَّةٍ، فاعلم أنكَ قد ابتُليتَ معهُ: إمَّا بالمؤاساةِ فتشاركُهُ في البليةِ، وإما بالخِذلانِ فتحتملُ العارَ. فالتمسِ المخرجَ عند أشباهِ ذلكَ، وآثِرْ مروءتَكَ على ما سواها.

فإن نزلت الجائحةُ التي تأبى نفسُكَ مشاركَةَ أخيكَ فيها فأَجْمِل، فلعلّ الإجمالَ يسَعُكَ لقِلَّةِ الإجمالِ في الناسِ.

وإذا أصابَ أخاكَ فضلٌ فإنهُ ليسَ في دُنُوِّكَ منهُ وابتغائِكَ مودَّتَهُ وتواضُعِكَ لهُ مذلةٌ. فاغتنم ذلك واعمل بهِ.

وليعلمْ صاحبكَ أنكَ تشفقُ عليهِ وعلى أصحابهِ، وإياكَ إن عاشركَ امرؤ أو رافقكَ أن لا يرى منكَ بأحدٍ من أصحابهِ وإخوانهِ وأخدانهِ رأفةً، فإنّ ذلكَ يأخذُ من القلوبِ مأخذاً. وإنّ لُطفكَ بصاحبِ صاحبكَ أحسنُ عندهُ موقعاً من لطفكَ بهِ في نفسهِ.

واتقِ الفرحَ عندَ المحزونِ، واعلم أنهُ يحقِدُ على المنطلقِ ويشكرُ للمكتئبِ.

اختيار الصاحب

لا تألفِ المستَوهِم، ولا تُقِمْ على غيرِ الثقةِ. ولا تؤاخِيَنّ خبّاً، ولا تستنصرَنّ عاجزاً، ولا تستعينّ كسِلاً.

وعلى العاقل أن لا يخادن ولا يُصاحبَ ولا يجاورَ من الناس، ما استطاعَ، إلا ذا فضلٍ في العلم والدينِ والأخلاقِ فيأخذ عنه، أو موافقاً لهُ على إصلاحِ ذلك فيؤيدُ ما عندهُ، وإن لم يكن لهُ عليهِ فضلٌ. فإنّ الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمى إلا بالموافقين والمؤيدين. وليس لذي الفضلِ قريبٌ ولا حميمٌ أقربُ إليهِ ممن وافقهُ على صالحِ الخصال فزادهُ وثبتهُ. ولذلك زعم بعضُ الأولينَ أن صُحبةَ بليدٍ نشأ مع العلماء أحَبُ إليهم من صحبةِ لبيبٍ نشأ مع الجهال.﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾(الزخرف ٦٧).

وعلى العاقل أن يؤنِسَ ذوي الألباب بنفسه ويحرِّئَهم عليها حتى يصيروا حرساً على سمعهِ وبصرهِ ورأيه، فيستنيم إلى ذلك ويُريح له قلبَهُ، ويعلم أنهم لا يغفلونَ عنه إذا هو غفل عن نفسه.

ومما يعتبرُ به صلاحُ الصالحِ وحسنُ نظرهِ للناسِ أن يكونَ إذا استّعتبَ المذنبُ ستُوراً لا يُشيعُ ولا يُذيعُ، وإذا استشيرَ سمحاً بالنصيحةِ مُجتهداً للرأي، وإذا استشارَ مُطرِحاً للحياء مُنقِّذاً للحزمِ مُعترفاً للحقّ.

وانظر مَن صاحبتَ من الناسِ: مِن ذي فضلٍ عليكَ بسلطة أو منزلةٍ، أو مَن دونَ ذلك من الأكفاء والخلطاء والإخوانِ، فوطِّن نفسكَ في صُحبتهِ على أن تقبل منهُ العفوَ وتسخُوَ نفسُكَ عما اعتاص عليكَ مما قِبَلهُ، غير مُعاتبٍ ولا مستبطئ ولا مستزيدٍ. فإنّ المعاتَبةَ مَقْطَعةٌ للوُدّ، وإنّ الاستزادة من الجشعِ، وإنّ الرضا بالعفوِ والمسامحةِ في الخُلقِ مقربٌ لكَ كل ما تتوقُ إليهِ نفسكَ مع بقاء العرضِ والمودةِ والمروءةِ.

واعلم أنكَ ستُبلى من أقوامٍ بسفهٍ، وأنّ سَفهَ السفيهِ سيُطلعُ لهُ منكَ حقداً، فإن عارضتهُ أو كافأتهُ بالسفهِ فكأنكَ قد رضيتَ ما أتى بهِ، فأحببتَ أن تحتذي على مثالهِ. فإن كانَ ذلك عندكَ مذموماً فحقِّق ذمك إياهُ بتركِ معارضتهِ. فأما أن تذُمَّهُ وتمتثِلَهُ فليس في ذلك لك سَدادٌ.

ولا تكثرنّ ادعاء العلمِ في كل ما يعرضُ بينكَ وبين أصحابكَ فإنك من ذلك بين فضيحتينِ: إما أن ينازعوك فيما ادعيتَ فيُهجمَ منكَ على الجهالةِ والصَّلَفِ، وإما ألا ينازعوك ويُخَلُّوا في يديك ما ادَّعَيْت من الأمورِ، فينكشفَ منكَ التصَنُّعُ والمعْجَزَةُ.

وإن آنستَ من نفسكَ فضلاً فتحرج أن تذكرهُ أو تبديهُ واعلم أن ظهورهُ منكَ بذلك الوجهِ يقرِّرُ لكَ في قلوبِ الناسِ من العيبِ أكثر مما يقررُ لكَ من الفضلِ. واعلم أنكَ إن صبرتَ ولم تعجَل ظهرَ ذلك منكَ بالوجهِ الجميلِ المعروفِ عند الناسِ. واستحْيِ الحياءَ كلَّهُ من أن تخبرَ صاحبكَ أنكَ عالمٌ وأنهُ جاهلٌ: مصرحاً أو معرضاً. وإن استطلتَ على الأكْفاء فلا تثِقنَّ منهم بالصفاء.

ولا يخفَيَنَّ عليكَ أنَّ حرصَ الرجلِ على إظهارِ ما عنده وقلةَ وقارهِ في ذلك بابٌ من أبوابِ البخلِ واللؤمِ. وأنّ من خيرِ الأعوان على ذلك السخاءَ والتكرُّمَ.

وإن أردتَ أن تلبسَ ثوبَ الوقارِ والجمالِ وتتحلى بحليةِ المودةِ عند العامةِ وتسلك الجَدَدَ الذي لا خَبَار فيه ولا عَثَارَ فكُنْ عالماً كجاهلٍ وناطقاً كعَيِيّ.

فأما العلمُ فيزيّنكَ ويرشدكَ، وأما قِلةُ ادعائهِ فتنفي عنكَ الحسد. وأما المنطقُ إذا احتجتَ إليه فيُبلِغكَ حاجتكَ. وأما الصمتُ فيكسبكَ المحبةَ والوقارَ.

وإن رأيتَ صاحبكَ مع عدوكَ فلا يُغضبنكَ ذلك، فإنما هو أحدُ رجلين: إن كان رجلاً من أخوانِ الثقةِ فأنفعُ مواطنهِ لك أقربها من عدوكَ لشرٍ يكفّهُ عنكَ، أو لعورةٍ يسترها منكَ، أو غائبةٍ يطّلعُ عليها لكَ، فأمّا صديقكَ فما أغناكَ أن يحضرهُ ذو ثقتك. وإن كان رجلاً من غيرِ خاصةِ

إخوانكَ فبأي حقٍ تقطعهُ عنِ الناسِ وتكلفهُ ألا يصاحبَ ولا يُجالسَ إلا من تهوى؟

تحفَّـظْ في مجلسـك وكلامـكَ مـن التطـاولِ علـى الأصحابِ، وطِب نفساً عن كثيرٍ مما يَعرِضُ لك فيهِ صوابُ القولِ والرأي، مُداراةً لئلا يَظُنَّ أصحابُكَ أنّ دأبَكَ التطاوُلُ عليهم.

وإذا أقبل إليكَ مقبلٌ بوُدهِ فسرَّكَ ألا يدبِرَ عنكَ، فلا تُـنعِمِ الإقبـالَ عليـهِ والتفـتُّحَ لـهُ، فـإنّ الإنسـانَ طُبِـعَ على ضرائبِ لؤمٍ. فمن شأنهِ أن يرحلَ عمّن لصَقَ بهِ ويلصَقَ بمن رحلَ عنه إلا من حفِظَ بالأدبِ نفسهُ وكابرَ طبعَهُ. فتحفَّظْ من هذا فيكَ وفي غيركَ.

احذر جليس السوء

كتب عـالم لتلميذه يقـول: **إنّ مجـاورَ رجـال السـوء ومصـاحبهم كراكـب البحـر، إن سلم مـن الغـرق لم يسـلم من المخاوف**. فإذا هو أورد نفسه موارد المهلكات ومصادر المخوفات، عُدّ من الحمير التي لا نفس لها. لأن الحيوانات البهيمية قد خصت في طبائعها بمعرفة ما تكتسب به النفع وتتوقى المكروه، وذلك أننا لم نرها تورد أنفسها مورداً فيه هلكتها. وأنها متى أشرفت على مورد مهلك لها، مالت بطبائعها التي ركبت فيها، شحاً بأنفسها وصيانةً لها، إلى النفور والتباعد عنه.

وصحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشـر، كـالريح إذا مـرت بالطيـب حملـت طيبـاً، وإذا مـرت بالنتن حملت نتناً.

وإذا صاحب أحد صاحباً وغدر بمن سواه فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودة موضعٌ، فلا شيء أضيع من مودةٍ تمنح مَن لا وفاء له، وحباءٍ يُصطنع عند مَن لا شكر لـه، وأدبٍ يُحمـل إلى مَـن لا يتـأدب بـه ولا يسـمعه، وسـرٍ يُستودع عند مَن لا يحفظه.

أدب العداوة

إن كنـتَ مكافئـاً بالعـداوةِ والضـررِ فـإياكَ أن تكـافئ عداوةَ السِّرّ بعداوةِ العلانية، وعداوةَ الخاصَّةِ بعداوةِ العامَّةِ، فإنّ ذلك هو الظلمُ. واعلم مع ذلك أنهُ ليس كلُّ العداوةِ والضررِ يُكافأُ بمثلهِ: كالخيانةِ لا تكافأ بالخيانةِ، والسّرقة لا تكافأ بالسرقةِ.

وليكن مما تنظرُ فيه من أمرِ عدوكَ وحاسدكَ أن تعلمَ أنهُ لا ينفعكَ أن تخبر عدوكَ وحاسدكَ أنكَ لهُ عدو، فتنذرَهُ بنفسك وتؤذِنَهُ بحربكَ قبل الإعداد والفرصةِ، فتحمِلهُ على التسلحِ لكَ، وتوقد نارهُ عليكَ.

واعلـم أنـه أعظـمُ لخطـركَ أن يـرى عـدوكَ أنـكَ لا تتخذهُ عدواً فإن ذلك غِرَّةٌ لهُ وسبيلٌ لكَ إلى القدرةِ عليهِ. فإن أنـتَ قـدرتَ واستطعتَ اغتفـارَ العداوةِ عـن أن تكـافئ بها فهنالكَ استكملتَ عظيمَ الخطرِ.

ومن الحيلة في أمركَ مع عدوك أن تصادقَ أصدقاءهُ وتُـؤاخِيَ إخوانَـهُ، فتـدخُلَ بينـهُ وبينـهم في سـبيلِ الشـقاقِ والتَّلاحـي والتَّجـافي حـتى ينتهـيَ ذلـك بهـم إلى القطيعـةِ والعداوةِ لهُ، فإنه ليس رجلٌ ذو طُرُقٍ يمتنعُ من مؤاخاتكَ إذا التمستَ ذلك منهُ. وإن كان إخوانُ عدوكَ غيرَ ذوي طُرُقٍ فلا عدو لكَ.

لا تـدَعْ، مـع السـكوتِ عـن شـتمِ عـدوكَ، إحصـاءَ مثالبهِ ومعايبهِ واتّباعَ عوراتهِ حتى لا يَشُذَّ عنكَ من ذلك صغيرٌ ولا كبيرٌ، من غيرِ أن تُشيعَ ذلك عليه فيتَّقِيكَ بهِ ويستعِدّ لهُ، أو تـذكرهُ في غـيرِ موضعهِ فتكـونَ كمستعرضِ الهواء بنَبْلِهِ قبلَ إمكانِ الرمي. ولا تتخذَّنّ اللعنَ والشتمَ على

عدوكَ سلاحاً، فإنهُ لا يجرحُ في نفسٍ ولا منزلةٍ ولا مالٍ ولا دينٍ.

إن أردتَ أن تكون داهياً فلا تُحبَّنَ أن تُسمَّى داهياً. فإنهُ مَن عُرِفَ بالدهاء خادع علانيةً، وحَذِرهُ الناسُ، حتى يمتنِعَ منهُ الضعيفُ، ويتعرَّضَ له القوي.

وإنّ من إرْبِ الأريبِ دفنَ إربهِ ما استطاعَ حتى يُعرَفَ بالمسامحةِ في الخليقةِ والاستقامةِ في الطريقةِ. ومِن إربهِ ألا يؤاربَ العاقلَ المستقيمَ الطريقةِ والذي يطَّلعُ على غامضِ إربهِ فيمقتُهُ عليهِ.

وإنْ أردتَ السلامةَ فأشعِرْ قلبكَ الهيبةَ للأمورِ، من غيرِ أن تَظهرَ منكَ الهيبةُ فتُفَطِّنَ الناسَ بنفسكَ وتُجرّئَهُم عليكَ وتدعو إليك منهم كل الذي تهابُ.

فاجعل لمداراةِ ذلك من كتمانِ الهيبةِ وإظهارِ الجُرأةِ والتهاونِ طائفةً من رأيكَ.

وإن ابتليتَ بمحاربةِ عدوكَ فحالِف هذه الطريقةَ التي وصفتُ لكَ من استشعارِ الهيبةِ وإظهارِ الجرأةِ والتهاونِ، وعليكَ بالحذرِ والجدِّ في أمركَ، والجرأةِ في قلبك، حتى تملأ قلبكَ جَرَاءةً ويَستفرِغ عملُكَ الحِذر.

واعلم أنّ مِن عدوكَ مَن يعملُ في هلاكِكَ، ومنهم من يعملُ في مصالحتكَ، ومنهم من يعملُ في البعدِ منكَ. فاعرِفهُم على منازلهم.

ومِن أقوى القوةِ لكَ على عدوكَ، وأعزِّ أنصاركَ في الغَلَبةِ لهُ، أن تُحصيَ على نفسكَ العُيوبَ والعوراتِ كما تُحصيها على عدوكَ، وتنظُرَ عند كل عيبٍ تراهُ أو تسمعهُ لأحدٍ من الناسِ: هل قارفتَ ذلكَ العيبَ أو ما شاكلهُ أو سلمتَ منهُ.

فإن كنتَ قارفتَ شيئاً منهُ جعلتَهُ مما تحصي على نفسكَ. حتى إذا أحصيتَ ذلكَ كلهُ فكاثِر عدوكَ بإصلاحِ نفسِكَ وعثراتِك وتحصينِ عوراتكَ وإحراز مَقَاتِلِكَ. وخذ نفسكَ بذلكَ ممسياً ومُصبحاً.

فإذا آنستَ منها دفعاً وتهاوناً بهِ فاعدُد نفسكَ عاجزاً ضائعاً خائباً، مُعْوِراً لعدوكَ ممكِناً لهُ من رميكَ. وإن حصلَ من عيوبكَ وعوراتكَ ما لا تقدرُ على إصلاحهِ من ذنبٍ مضى لكَ، أو أمرٍ يعيبكَ عند الناسِ ولا تراهُ أنتَ عيباً، فاحفظ ذلك وما عسى أن يقولَ فيه قائلٌ مِن حَسَبكَ أو مثالبِ آبائكَ أو عيبِ إخوانكَ ثم اجعل ذلكَ كلهُ نصبَ عينك واعلم أنّ عدوكَ مريدكَ بذلك. فلا تغفُل عن التهيؤ لهُ والإعدادِ لقوَّتكَ وحُجتكَ وحيلتكَ فيهِ سراً وعلانية.

فأما الباطلُ فلا تَرُوعَنّ بهِ قلبكَ ولا تستعِدَّنّ لهُ ولا تشتغلَنّ بشيءٍ من أمرهِ، فإنهُ لا يَهُولكَ ما لم يقع، وما إن وقع اضمحلَ.

واعلم أنهُ قَلَّما بُدِهَ أحَدٌ بشيء يعرفهُ من نفسهِ، وقد كان يطمعُ في إخفائهِ عن الناسِ، فيعيّرهُ به معيّرٌ عند الرئيس أو غيرهِ، إلا كاد يشهدُ بهِ عليهِ وجههُ وعيناهُ ولسانُهُ، للذي يبدو منهُ عندَ ذلكَ، والذي يكونُ من انكسارهِ وفتورهِ عند تلكَ البديهةِ. فاحذر هذه وتصنَّعْ لها، وخذْ أُهْبَتَكَ لِبَغَتَاتها وتقدَّم في أخذِ العتادِ لِنَقْبِها.

وإنّ من أحزمِ الرأي لكَ في أمرِ عدوكَ ألا تذكرَهُ إلا حيث تضُرهُ. وألا تعُدَّ يسيرَ الضررِ لهُ ضرراً.

القسم السادس

إدارة البلاد

إدارة الناسِ بلاءٌ عظيمٌ. وعلى الرئيس أربعُ خصالٍ هي أعمدةُ الإدارة وأركانها التي بها يقومُ التدبير وعليها يثبتُ: الاجتهادُ في التخيُّرِ، والمبالغةُ في التقدُّمِ، والتعهد الشديدُ، والجزاءُ العتيد.

فأما **التخيُّرُ** للعمالِ والأعوان فإنهُ نظامُ الأمرِ ووضعُ مؤونةِ البعيد المنتشرِ. فإنهُ عسى أن يكونَ بتخيرِهِ رجلاً واحداً قد اختار ألفاً، لأنهُ من كان من العُمالِ خياراً فسيختارُ كما اختيرَ. ولعل عُمَّالَ العاملِ وعمالَ عُمالهِ يبلغونَ عدداً كثيراً، فمَن تبيَّن التخيرَ فقد أخذ بسببٍ وثيقٍ، ومَن أسس أمرهُ على غيرِ ذلك لم يجدِ لبنائه قواماً.

وأما **التقديم** والتوكيدُ، فإنهُ ليس كل ذي لُبٍّ أو ذي أمانةٍ يعرفُ وجوهَ الأمورِ والأعمالِ، ولو كانَ بذلك عارفاً، لم يكن صاحبهُ حقيقاً أن يكِل ذلك إلى علمهِ دونَ توقيفهِ عليهِ وتبيينهِ لهُ والاحتجاجِ عليه بهِ.

وأما **التعهدُ**، فإنَّ الرئيس إذا فعلَ ذلكَ كان سميعاً بصيراً، وإنَّ العامل إذا فُعِل ذلك به كان متحصناً حَريزاً.

وأما **الجزاء** فإنهُ تثبيتُ المحسنِ والراحةُ من المسيء.

فإذا كنتَ إنما تضبُطُ أمورك وتَصُولُ على عدوكَ بقومٍ لست منهم على ثقةٍ من دينٍ ولا رأي ولا حِفاظٍ من نيةٍ فلا تنفعنَّكَ نافعةٌ حتى تحوِّلهم، إن استطعتَ إلى الرأي والأدبِ الذي بمثلهِ تكون الثقة، أو تستبدلَ بهم إن لم تستطع نقلهم إلى ما تريد. ولا تغرنَّكَ قوتُكَ بهم على غيرهم، فإنما أنت في ذلك كراكبِ الأسدِ الذي يهابهُ من نظر إليه، وهو لمركبهِ أهْيَبُ.

ولا تستطاع إدارة البلاد إلا بالنواب والأعوانِ، ولا ينفعُ هؤلاء إلا بالمودةِ والنصيحةِ، ولا المودةُ إلا مع الرأي والعفاف.

فإذا كانت سلطتُكَ عند جِدَّةِ دولةٍ، فرأيتَ أمراً استقام بغيرِ رأيٍ، وأعواناً أجزَوا بغيرِ نيلٍ، وعملاً أنجَحَ بغيرِ حزمٍ، فلا يغرنَّك ذلك ولا تَستَنيمنَّ إليه. فإنّ الأمرَ الجديد ربما يكونُ له مهابةٌ في أنفسِ أقوامٍ وحلاوةٌ في قلوبِ آخرينَ، فيُعينُ قومٌ على أنفسهم ويعينُ قومٌ بما قِبَلَهم. ويستتِبُّ ذلكَ الأمرُ غير طويلٍ ثم تصيرُ الشؤونُ إلى حقائقها وأصولها. فما كان من الأمور بُني على غيرِ أركانٍ وثيقةٍ ولا دعائم محكمةٍ أوشك أن يتداعى ويتصدع.

وأعمالُ الرئيس كثيرةٌ، وقليلٌ ما تُستجمعُ الخصالُ المحمودةُ عند أحدٍ، وإنما الوجهُ في ذلك والسبيلُ الذي به يستقيمُ العمل أن يكون الرئيس عالماً بأمورِ من يريدُ الاستعانةَ به وما عند كل رجلٍ من الرأي والغَناء، وما فيه من العيوبِ. فإذا استقر ذلك عنده عن علمهِ وعلم مَن يأتمنُ وجَّهَ لكل عملٍ مَن قد عرَف أنّ عندهُ من الرأي والنَّجدةِ والأمانةِ ما يحتاجُ إليه فيهِ، وأنَّ ما فيه من العُيوبِ لا يضرُّ بذلك، ويتحفظُ من أن يوجِّه أحداً وجهاً لا يحتاجُ فيه إلى مروءةٍ، إن كانت عندهُ، ولا يأمنُ عيوبهُ وما يكرهُ منه.

ثم على الرؤساء، بعد ذلكَ، تعاهدُ عمالهم وتفقد أمورهم، حتى لا يخفى عليهم إحسانُ محسنٍ ولا إساءةُ مسيء. ثم عليهم، بعد ذلكَ، أن لا يتركوا محسناً بغيرِ جزاءٍ ولا يقروا مسيئاً ولا عاجزاً على الإساءةِ والعجزِ. فإنهم إن تركوا ذلك، تهاونَ المحسنُ، واجترأ المسيءُ، وفسد الأمرُ، وضاعَ العملُ.

واعلم أن السلطة ثلاثةٌ: سلطة دينٍ، وسلطة حزمٍ، وسلطة هوى.

فأما سلطة الدِّينِ فإنّ صاحبها إذا أقام للرعيةِ دينهم، وكان دينهم هو الذي يعطيهم الذي لهم ويُلحِقُ بهم الذي عليهم، أرضاهم ذلك، وأنزل الساخِط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم.

وأما سلطة الحزمِ فإن صاحبها يقومُ به الأمرُ ولا يسلمُ من الطعنِ والتسخطِ. ولن يضر طعنُ الضعيفِ مع حزمِ القوي.

alkhaznadarn67@gmail.com

وأما سلطة الهوى فلَعِبُ ساعةٍ ودمارُ دهرٍ.

وإذا ابتُليتَ بالسلطة فَتعَوَّذ بالعلماء. واعلم أنّ من العجبِ أن يُبتلى الرجلُ بالسلطة فيريد أن ينتقِص من ساعات نصَبهِ وعملهِ فيزيدَها في ساعاتِ دعتهِ وفراغهِ وشهوتهِ وعبَثه ونومهِ.

وإنما الرأيُ لهُ والحقُّ عليهِ أن يأخذ لعملهِ من جميعِ شغله، فيأخذ لهُ من طعامهِ وشرابهِ ونومهِ وحديثهِ ولهوهِ ونسائهِ. وإنما تكون الدعةُ بعد الفراغِ.

فإذا تقلدت شيئاً من أمرِ السلطة فكن فيه أحد رجلين: إما رجلا مغتبطاً به، محافظاً عليهِ مخافة أن يزول عنهُ، وإما رجلاً كارهاً له مكرَها عليهِ. فالكارهُ عاملٌ في سُخْرةٍ: إمَّا للرؤساء، إن كانوا هم سلَّطوهُ، وإمَّا لله تعالى، إن كان ليس فوقَهُ غيرُهُ. وقد علمتَ أنه من فرَّط في سخرةِ الرؤساء أهلكوهُ. فلا تجعل للهلاكِ على نفسكَ سلطاناً ولا سبيلاً.

لتكُن حاجتُكَ في الإدارة إلى ثلاثة خصالٍ: رِضَى ربكَ ورضى رئيس عادل إن كانَ فوقك، ورضى صالحِ مَن تَلي عليهِ. ولا عليكَ أن تلهوَ عن المالِ والذكرِ، فسيأتيك منهُما ما يحسنُ ويطيبُ ويُكتفَى به. واجعلِ الخصالَ الثلاثَ منكَ بمكان ما لا بُدَّ لك منهُ. واجعل المال والذكر بمكانِ ما أنتَ واجدٌ منهُ بداً.

واعرِفِ الفضل في أهل الدِّينِ والمروءة في كل كُورةٍ وقريةٍ وقبيلةٍ. فيكونوا هم إخوانَكَ وأعوانك وأخدانكَ وأصفياءك وبطانتَك وثقاتِكَ وخلطاءكَ. ولا تقذِفَنَّ في روعك أنك إن استشرت الرجال ظهر للناسِ منكَ الحاجةُ إلى رأي غيركَ، فإنكَ لست تريدُ الرأي للافتخارِ به، ولكنما تُريدُهُ للانتفاع بهِ. ولو أنكَ مع ذلك أردت الذكر، كان أحسنَ الذِّكرَيْنِ وأفضلَهما عند أهلِ الفضلِ والعقلِ أن يقالَ: لا يتفرَّدُ برأيهِ دونَ استشارةِ ذوي الرأي.

إنك إن تلتمس رضى جميعِ الناس تلتمس ما لا يدركُ. وكيف يتفقُ لك رأي المختلفينَ، وما حاجتُكَ إلى رضى مَن رضاهُ الجوْرُ، وإلى موافقةِ مَن موافقتهُ الضلالةُ والجهالةُ؟ فعليك بالتماسِ رضى الأخيارِ منهم وذوي العقلِ. فإنك متى تُصِب ذلك تضع عنكَ مؤونة ما سواهُ.

صفات لا تليق بالرئيس

قد يسعى إلى أبوابِ الرئيس أجناسٌ من الناسِ كثيرٌ، أمَّا الصالحُ فمدعو، وأمَّا الطالحُ فمقتحم، وأما ذو الأدبِ فطالبٌ، وأما من لا أدبَ لهُ فمختلسٌ، وأما القوي فمُدافِعٌ، وأما الضعيف فمدفوعٌ، وأما المحسنُ فمستثيبٌ، وأما المسيء فمستجيرٌ. فهو مجمعُ البَرِّ والفاجر، والعالِمِ والجاهلِ، والشريفِ والوضيعِ.

وليعلمِ الرئيس أن الناسَ يصِفون الرؤساء بسوء العهدِ ونسيانِ الوُدّ، فليكابد نَقْض قولهم، وليُبطل عن نفسهِ وعن الرؤساء صفاتِ السوءِ التي يوصفونَ بها.

وليس للرئيس أن يغضَبَ، لأن القُدرة من وراء حاجتهِ. وليس لهُ أن يكذبَ، لأنه لا يقدِرُ أحدٌ على استكراههِ على غير ما يُريدُ. وليس له أن يبخَلَ، لأنه أقلُّ الناسِ عذراً في تخوّفِ الفقرِ. وليس له أن يكون حقوداً، لأن خطرهُ قد عظُمَ عن مجاراةِ كل الناسِ. وليس لهُ أن يكونَ حلاّفاً، لأنّ أحقَّ الناسِ باتقاء الأيمان الرؤساء، فإنما يحمِلُ الرجلَ على الحَلِفِ إحدى هذه الخصال:

إما مهانةٌ يجدها في نفسه، وضَرَعٌ وحاجةٌ إلى تصديقِ الناسِ إياهُ. وإما عِيٌّ بالكلامِ، فيجعل الأيمان لهُ حشواً ووصلاً. وإما تَهَمَةٌ قَد عرَفها مِن الناسِ لحديثهِ، فهو يُنزلُ نفسَهُ منزلةَ من لا يُقبَلُ قولُهُ إلا بعد جَهْدِ اليَمين. وإمَّا عبَثٌ بالقولِ وإرسالٌ للّسانِ على غيرِ رويّةٍ ولا حُسنِ تقديرٍ، ولا تعويدٍ له قولَ السدادِ والتثبّتَ.

alkhaznadarn67@gmail.com

واحترس من سَوْرَةِ الغضبِ وسورةِ الحميةِ وسورةِ الحقدِ وسورة الجهلِ، وأَعْدِدْ لكل شيءٍ من ذلك عُدَّةً تجاهِدُهُ بها من الحِلمِ والتفكرِ والرويةِ وذكر العاقبةِ وطلبِ الفضيلةِ.

واعلم أنك لا تُصيبُ الغلبةَ إلا بالاجتهاد والفضلِ، وأنّ قلةَ الإعدادِ لمدافعةِ الطبائعِ المتطلّعةِ هو الاستسلامُ لها. فإنهُ ليس أحدٌ من الناسِ إلا وفيه من كل طبيعةٍ سوءُ غريزةٍ. وإنما التفاضلُ بينَ الناسِ في مغالبةِ طبائع السوء.

فأما أن يسلم أحدٌ من أن تكونَ فيه تلك الغرائزُ فليس في ذلك مطمعٌ. إلا أن الرجل القوي إذا كابرها بالقمعِ لها كلما تطلعت لم يلبث أن يُميتها حتى كأنها ليست فيهِ. وهي في ذلكَ كامنةٌ كُمونَ النارِ في العُودِ، فإذا وجدتْ قادحاً من علةٍ، أو غفلةً استَوْرت كما تستوري النارُ عند القَدحِ، ثم لا يبدأ ضَرُّها إلا بصاحبها، كما لا تبدأ النارُ إلا بعودها الذي كانت فيهِ.

واعلم أنكَ إن جاوزتَ الغايةَ في العبادةِ صِرتَ إلى التقصيرِ، وإن جاوزتها في حملِ العلمِ لحقتَ بالجُهّالِ، وإن جاوزتها في تكلّفِ رِضى الناسِ والخِفّةِ معهم في حاجاتهم كنتَ المحشودَ المصْنِع.

واعلم أن بعضَ العطيةِ لؤمٌ، وبعضَ السَّلاطةِ غَمٌّ، وبعض البيانِ عِيٌّ، وبعض العلمِ جهلٌ. فإن استطعتَ ألا يكون عطاؤك جوراً، ولا بيانُكَ هذراً، ولا علمكَ وبالاً، فافعل.

إدارة الأعمال والسياسة

لا تتركنَّ مُباشرةَ جسيمِ أمركَ فيعودَ شأنُكَ صغيراً، ولا تُلزمنَّ نفسكَ مباشرةَ الصغيرِ، فيصيرَ الكبيرُ ضائعاً.

واعلم أنَّ مالَكَ لا يُغني الناسَ كلَّهم فاخصُصْ به أهلَ الحق، وأنّ كرامتك لا تطيقُ العامَّةَ كلها فتوَخَّ بها أهل الفضلِ، وأنّ قلبكَ لا يتسعُ لكل شيء ففرِّغه للمهم، وأنّ ليلكَ ونهاركَ لا يستوعبان حاجاتِكَ، وإن دأبْتَ فيهما، وأنّ ليس لك إلى إدامة الدأب فيهما سبيلٌ مع حاجةِ جسدك إلى نصيبهِ منهما فأحسن قسمتَهُما بين عملك ودعتكَ.

واعلم أن ما شغلت من رأيك بغير المهم أزرى بكَ في المهم، وما صرفتَ من مالكَ في الباطلِ فقدتهُ حينَ تُريدهُ للحقّ، وما عدلتَ به من كرامتك إلى أهلِ النقصِ أضرَّ بكَ في العجزِ عن أهلِ الفضلِ، وما شغلتَ من ليلكَ ونهاركَ في غير الحاجةِ أزرى بكَ عند الحاجةِ منكَ إليهِ.

وكان يقالُ: إذا تخالجتْك الأمور فاشتغل بأعظمها خطراً، فإن لم تستبن ذلك فأرجاها درْكاً، فإن اشتبه ذلك فأجدرها أن لا يكون له مرجوعٌ حتى تُولِّيَ فرصتُه.

ولا عيبَ على الرئيس في تعيشهِ وتنعمهِ ولعبهِ ولهوهِ، إذا تعهد الجسيم من أمرهِ بنفسهِ، وأحكمَ المهم، وفوَّض ما دون ذلك إلى الكُفاةِ.

ولا تُمكِّن أهل البلاء الحسنِ عندك من التدلُّلِ عليكَ، ولا تُمكِنَنَّ مَن سواهمُ مِن الاجتراء عليهم والعيبِ لهم.

ولتعرِف رعيتُكَ أبوابَكَ التي لا ينالُ ما عندكَ من الخيرِ إلا بها، والأبوابَ التي لا يخافكَ خائفٌ إلا من قِبلها.

واحرصِ الحرص كلهُ على أن تكونَ خابرا أمور عمالكَ، فإنّ المسيء يفرَقُ من خبرتكَ قبل أن تُصيبهُ عقوبتُكَ، وإنّ المحسنَ يستبشرُ بعلمكَ قبلَ أن يأتيهُ معرُوفكَ.

وليعرفِ الناسُ، فيما يعرفونَ من أخلاقك، أنك لا تُعاجلُ بالثوابِ ولا بالعقابِ، فإن ذلك أدوَمُ لخوفِ الخائفِ ورجاء الراجي.

عـوِّد نفسـك الصـبر علـى مـن خالفـكَ مـن ذوي النصيحة، والتجرع لمرارةِ قولهم وعذلهم، ولا تُسهِّلنَّ سبيلَ ذلك إلا لأهلِ العقلِ والسنِّ والمروءةِ، لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئ به سفيهٌ أو يستخفُّ به شانئٌ.

وليعلمِ الرئيس أنّ الناس على رأيهِ إلا من لا بال لهُ. فليكن للدِّين والبِرِّ والمروءةِ عندهُ نَفاقٌ فيُكْسِدَ بذلك الفجورَ والدناءةَ في آفاقِ الأرضِ.

وجِماعُ ما يحتاجُ إليه الرئيس من أمر الدنيا رأيانِ: رأيٌ يُقوّي به سلطتهُ، ورأيٌ يزيّنهُ في الناسِ. ورأيُ القوةِ أحقُّهما بالبداءةِ وأَولاهما بالأثَرَة. ورأي التزيين أحضرُهما حلاوةً وأكثَرُهما أعواناً. مع أن القُوةَ من الزينةِ، والزينةَ من القوةِ. ولكنَّ الأمر يُنسبُ إلى مُعظمهِ وأصلهِ.

واعلم أن الرئيس يقبلُ من أعوانه التبْخيل ويَعُدّهُ منهم شفقةً ونظراً لهُ، ويحمدُهمُ عليهِ، فإن كان جواداً وكنت مبخِّلاً، شِنتَ صاحبكَ بفسادِ مروءتهِ، وإن كنتَ مُسخيّاً، لم تأمن إضرارَ ذلك بمنزلتكَ عندهُ.

فالرأي لك تصحيحُ النصيحةِ على وجهها، والتماسُ المخلصِ من العيبِ واللائمةِ فيما تتركُ من تبخيلِ صاحبكَ بألا يعرفَ منكَ فيما تدعوهُ إليهِ ميلاً إلى شيءٍ من هواكَ ولا طلباً لغيرِ ما ترجو أن يزينَهُ وينفعَهُ.

وحقُّ الرئيس أن يتفَقّد لطيفَ أمورِ عماله، فضلاً عن جسيمها، فإن للَّطيفِ موضعاً يَنتفعُ به، وللجسيم موضعاً لا يستغني عنهُ. وليتفقد فيما يتفقدُ من أمورِ عماله، فاقةَ الأخيارِ والأحرار منهم، فليعمل في سدِّها، وطُغيانَ السفلةِ منهم فليقمعْهُ، وليستوحِش من الكريمِ الجائعِ واللئيم الشبعانِ، فإنما يصولُ الكريمُ إذا جاعَ، واللئيمُ إذا شبعَ.

ولا ينبغي للرئيس أن يحسُدَ الرؤساء إلا على حسنِ التدبيرِ. ولا يحسدنّ الرئيس مَن دونه فإنه أقلّ في ذلك عذراً من السّوقةِ التي إنما تحسُدُ مَن فوقها، وكلٌّ لا عُذْرَ لهُ.

ولا يلومَنَّ الرئيس على الزلَّة مَن ليس بمتَّهَمٍ عندهُ في الحرصِ على رضاهُ إلا لومَ أدبٍ وتقويمٍ، ولا يعدِلَنّ بالمجتهد في رضاهُ البصيرِ بما يأتي أحداً. فإنهما إذا اجتمعا في الأعوان والصاحبِ نام الرئيس واستراح، وجُلبت إليه حاجاتُهُ وإن هدأ عنها، وعُمِل لهُ فيما يُهِمّهُ وإن غَفَلَ.

ولا يُولَعنَّ الرئيس بسوءِ الظنّ لقولِ الناسِ، وليجعلْ لحُسنِ الظنّ من نفسهِ نصيباً موفوراً يُرَوّحُ بهِ عن قلبهِ ويُصدِرُ عنه في أعمالهِ.

ولا يُضيعَنّ الرئيس التثبّتَ عندما يقولُ، وعندما يُعطي، وعندما يعملُ، فإنّ الرجوعَ عن الصمتِ أحسنُ من الرجوعِ عن الكلامِ، وإنّ العطيةَ بعد المنعِ أجملُ من المنعِ بعد الإعطاء، وإنّ الإقدامَ على العمل بعد التأني فيه أحسنُ من الإمساكِ عنهُ بعد الإقدام عليه. وكلُّ الناسِ محتاجٌ إلى التثبت، وأحوجهم إليهِ رؤساؤهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافعٌ، وليس عليهم مُسْتَحِثّ.

وإذا أصبت عندَ الرئيس لطفَ منزلةٍ، لغَناءٍ يجدهُ عندكَ أو هوى يكونُ لهُ فيكَ، فلا تطمحَنَّ كل الطِّماحِ ولا تُزينَنَّ لك نفسُكَ المزايلةَ لهُ عن أليفهِ وموضعِ ثقتهِ وسرهِ قبلكَ، تُريدُ أن تقلعهُ وتدخلَ دونه. فإنّ هذه خَلةٌ من خلالِ السفهِ قد يُبتلى بها الحلماءُ عند الدّنُو من الرئيس حتى يحدث الرجلُ منهم نفسهُ أن يكونَ دون الأهلِ والولدِ، لفضلٍ يظنهُ بنفسهِ أو نقصٍ يظنهُ بغيرهِ.

ولكل رجلٍ من رئيس أو ذي هيئةٍ من السوقةِ أليفٌ وأنيسٌ قد عرفَ روحهُ واطّلع على قلبهِ. فليست عليهِ مؤونةٌ في تبذلٍ يتبذّلهُ عندهُ، أو رأي يستبينُ منهُ، أو سرٍ يفشيهِ

إليه. غير أن تلكَ الأنَسة وذلك الإلفَ يستخرجُ من كل واحدٍ منهما ما لم يكن ليظهر منهُ عند الانقباضِ والتشدّد.

ولو التمس ملتمسٌ مثلَ ذلك عندَ من يستأنفُ مُلاطفتَهُ ومؤانستهُ ومناسمتهُ، وإن كانَ ذا فضلٍ في الرأي وبسطةٍ في العلمِ، لم يجد عنده مثلَ ما هو منتفعٌ به ممن هو دونَ ذلك في الرأي ممن قد كُفِيَ مؤانستهُ ووقعَ على طباعهِ. لأن الأنسة روحٌ للقلوبِ، وأن الوحشة روعٌ عليها. ولا يَلتاطُ بالقلوبِ إلا ما لان عليها. ومَن استقبلَ الأنسَ بالوحشةِ استقبل أمراً ذا مؤونةٍ.

فإذا كلفتك نفسكَ السموَّ إلى منزلةِ من وصفتُ لكَ، فاقدَعْها عن ذلك بمعرفةِ فضلِ الأليفِ والأنيسِ، وإذا حدثتكَ نفسُكَ أو غيركَ، ممن لعلهُ أن يكونَ عندهُ فضلٌ في مروءةٍ، أنك أولى بالمنزلةِ عند الرئيس من بعضِ دخلائهِ وثقاتهِ فاذكر الذي على الرئيس من حق أليفهِ وثقتهِ وأنيسهِ في التكرمةِ والمكانةِ والرأي، والذي يُعينُهُ على ذلكَ من الرأي أنهُ يجدُ عندهُ من الإلفِ والأنسِ ما ليس واجداً عندَ غيرهِ. فليكن هذا مما تحفظُ فيهِ على نفسكَ وتعرف فيه عذر الرئيس ورأيهُ. والرأي لنفسكَ مثلُ ذلكَ، إن أرادكَ مريدٌ على الدخولِ دونَ أليفكَ وأنيسكَ وموضعِ ثقتكَ وسركَ وجِدّكَ وهزلكَ.

فارفُق بنُظرائكَ من أعوان الرئيس العادل وأخِلائِهِ ودُخلائهِ، واتخِذهم إخواناً، ولا تتخذهم أعداء، ولا تُنافسهم في الكلمةِ يتقربون بها، أو العملِ يؤمرون به دونكَ. فإنما أنت في ذلك أحدُ رجُلين: إما أن يكونَ عندك فضلٌ على ما عند غيركَ فسوف يبدوُ ذلك ويحتاجُ إليهِ ويلتمسُ منكَ، وأنتَ مجملٌ. وإما ألا يكون ذلك عندكَ. فما أنت مُصيبٌ من حاجتكَ عند هؤلاء بمقاربتكَ إياهم وملاينتكَ، وما أنت واجدٌ في موافقتكَ إياهم ولينك لهم من موافقتهم إياك ولينهم لك أفضلُ مما أنتَ مدركٌ بالمنافسةِ والمنافرةِ لهم.

ولا تجترئن على خلافِ أصحابكَ عند الرئيس، ثقةً باعترافهم لكَ ومعرفتهم بفضلِ رأيك، فإنا قد رأينا الناسَ يعترفونَ بفضلِ الرجلِ وينقادونَ لهُ ويتعلمونَ منهُ، وهم أخْلِياء، فإذا حضروا الرئيس، لم يرضَ أحدٌ منهم أن يُقِرَّ لهُ، ولا أن يكون لهُ عليهِ في الرأي والعلم فضلٌ، فاجتَرَأوا عليهِ بالخلاف والنقضِ.

فإن ناقضهم صارَ كأحدهم، وليس بواجدٍ في كل حينٍ سامعاً فهِماً أو قاضياً عدلاً، وإن تركَ مناقضتهم، كان مغلوبَ الرأي مردودَ القولِ.

ولا تشكُوَنَّ إلى أعوان الرئيس ودخلائهِ ما اطّلعتَ عليه من رأي تكرههُ لهُ. فإنك لا تزيدُ على أن تُفَطِّنَهم لهواهُ أو تقربَهُمُ منهُ وتُغريَهم بتزيينِ ذلك والميلِ عليكَ معهُ.

واعلم أنّ الرجل ذا الجاهِ عند الرئيس والخاصةِ لا محالةَ أن يرى من الرئيس ما يُخالفهُ من الرأي في الناسِ والأمورِ. فإذا آثر أن يكرهَ كل ما خالفهُ أوشكَ أن يمتعضَ من الجفوةِ يراها في المجلسِ، أو النَّبْوةِ في الحاجةِ، أو الردِّ للرأي، أو الإدناءِ لمن لا يهوى إدناءهُ، أو الإقصاءِ لمن يكرهُ إقصاءهُ. فإذا وقعتْ في قلبهِ الكراهيةُ تغيَّرَ لذلك وجههُ ورأيهُ وكلامهُ حتى يبدو ذلك للرئيس وغيرهِ، فيكونَ ذلكَ لفسادِ منزلَتهِ ومروءتهِ سبباً وداعياً.

فذلِّل نفسكَ باحتمالِ ما خالفكَ من رأي الرئيس، وقرِّرها على أنّ الرئيس إنما كان رئيسا لتتبعَهُ في رأيهِ وهواهُ وأمرهِ، ولا تكلفهُ اتباعكَ وتغضب من خلافهِ إياكَ.

حق الرئيس المقسط

إن للرئيس المُقْسِطِ حقاً لا يصلحُ بخاصةٍ ولا عامةٍ أمرٌ إلا بإرادتهِ، فذو اللُّب حقيقٌ أن يخُلص لهمُ النصيحة، ويبذل لهم الطاعة، ويكتُم سرّهم، ويزينَ سيرتهم، ويذبُّ بلسانه ويده عنهم، ويتوخى مرضاتهم، ويكون من أمرهِ المؤاتاةُ لهم والإيثارُ لأهوائهم ورأيهم على هواهُ ورأيهِ، ويقدِّرَ

الأمورَ على موافقتهم وإن كان ذلك له مخالفاً، وأن يكون منهُ الجد في المخالفة لمن جانبهم وجهِل حقهم، ولا يواصل من الناسِ إلا من لا تُباعد مواصلتهُ إياهُ منهم، ولا تحملهُ عداوةُ أحدٍ لهُ ولا إضرارٌ به على الاضطغانِ عليهم، ولا مؤاتاةُ أحدٍ على الاستخفاف بشيء من أمورهم والانتقاص لشيء من حقهم، ولا يكتُمهم شيئاً من نصيحتهم، ولا يتثاقل عن شيء من طاعتهم، ولا يبطر إذا أكرموهُ، ولا يجترئ عليهم إذا قرَّبوه، ولا يطغى إذا سلَّطوهُ، ولا يُلحِف إذا سألهم، ولا يُدخِل عليهمُ المؤونة، ولا يستثقل ما حمَّلوهُ، ولا يعتزَّ عليهم إذا رضوا عنهُ، ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه، وأن يحمدهم على ما أصابَ من خيرٍ منهم أو من غيرهم فإنهُ لا يقدرُ أحدٌ على أن يُصيبهُ بخيرٍ إلا بدفاعِ الله عنهُ بهم.

ولا تكوننَّ صُحبتُكَ للرؤساء إلا بعد رياضةٍ منك لنفسكَ على طاعتهم في المكروهِ عندكَ، وموافقتهم فيما خالفكَ، وتقديرِ الأمورِ على أهوائهم دون هواكَ، وعلى ألا تكتمهم سرك ولا تستطلع ما كتموكَ، وتُخفي ما أطلعوكَ عليهِ على الناسِ كلهم حتى تحمي نفسك الحديثَ بهِ، وعلى الاجتهادِ في رضاهم، والتلطفِ لحاجتهم، والتثبيتِ لحُجتهم، والتصديقِ لمقالتهم، والتزيين لرأيهم، وعلى قلةِ الاستقباحِ لما فعلوا إذا أساؤوا، وتركِ الانتحالِ لما فعلوا إذا أحسنوا، وكثرةِ النشرِ لمحاسنهم، وحسنِ الستر لمساوئهم، والمقاربةِ لمن قاربوا وإن كانوا بُعَداءَ، والمباعدةِ لمن باعدوا وإن كانوا أقرباءَ، والاهتمامِ بأمرهم وإن لم يهتموا بهِ، والحفظِ لُهم وإن ضيَّعوهُ، والذكرِ لهم وإن نَسوهُ، والتخفيفِ عنهم من مؤونتكَ، والاحتمالِ لهم كلَّ مؤونةٍ، والرضى منهم بالعفوِ، وقلةِ الرضى من نفسكَ لهم إلا بالاجتهادِ.

وإن وجدت عنهم وعن صحبتهم غنى، فأغنِ عن ذلكَ نفسكَ واعتزلهُ جَهدكَ فإنهُ من يأخذ عملَهم بحقهِ، يُحَلْ بينهُ وبينَ لذةِ الدنيا وعملِ الآخرةِ. ومَن لا يأخُذ بحقهِ، يحتملِ الفضيحةَ في الدنيا والوزر في الآخرةِ.

إنكَ لا تأمَنُ أنفةَ الرؤساء إن أعلمتَهم، ولا تأمنُ عقوبتهم إن كتمتهم، ولا تأمنُ غضبتهم إن صدَقتهم، ولا تأمن سلوَتَهم إن حدثتهم. وإنك إن لزِمتهم لم تأمن تبرُّمَهم بكَ، وإن زايلتهم لم تأمن عقابهم، وإن تستأمرهم حمَلتَ المؤونةَ عليهِم، وإن قطعتَ الأمرَ دونهم لم تأمن فيهِ مخالفتهم. إنهم إن سخطوا عليكَ أهلكوك. وإن رضوا عنكَ تكلفتَ من رضاهم ما لا تُطيقُ.

فإن كنتَ حافظاً إن بلَوْكَ، جلْداً إن قرَّبوك، أميناً إن ائتمنوكَ، تعلِّمهم وأنت تريهم أنك تتعلم منهم، وتؤدبهم وكأنهم يؤدبونكَ، تشكرهم ولا تكلفهمُ الشكر، بصيراً بأهوائهم مؤثراً لمنافعهم، ذليلاً إن ظلموكَ، راضياً إن أسخطوكَ، وإلا فالبعدَ منهم كلّ البعدِ، والحذر منهم كل الحذرِ.

تحرَّز من سُكر السلطة وسكر المالِ وسكرِ العلمِ وسكرِ المنزلةِ وسكر الشبابِ، فإنهُ ليسَ من هذا شيءٌ إلا وهو ريحُ جِنَّةٍ تسلبُ العقلَ وتذهبُ بالوقارِ وتصرفُ القلبَ والسمعَ والبصرَ واللسان إلى غير المنافعِ.

ماذا على المبتلى بصحبة الرئيس؟

إن ابتُليتَ بصحبة الرئيس فعليكَ بطولِ المواظبة في غير معاتبةٍ، ولا يُحدِثّنَّ لك الاستئناسُ به غفلةً ولا تهاوُناً.

وإذا رأيتَ الرئيس يجعلُكَ أخاً فاجعله أباً، ثم إن زادك فزدهُ.

وإذا نزَلْتَ من ذي منزلةٍ أو سلطة فلا تَرينّ أنّ منزلته زادتك له توقيراً وإجلالاً، من غيرِ أن يزيدكَ وُدّاً ولا نُصحاً. وأنك ترى حقاً له التوقيرَ والإجلالَ. وكن في مداراتهِ والرفقِ به كالمؤْتنفِ ما قبلهُ، ولا تُقدِّرِ الأمر بينكَ وبينهُ على ما

كنتَ تعرفُ من أخلاقِهِ، فإنّ الأخلاقَ مستحيلةٌ مع الرئيس، وربما رأينا الرجل المدِلَّ على ذي السلطة بقِدَمِهِ قد أضرَّ بهِ قِدَمُهُ.

وإن استطعتَ ألا تصحبَ مَن صَحِبتَ من الرؤساء إلا على شُعبةٍ من قرابةٍ أو مودةٍ، فافعلْ. فإن أخطأك ذلك فاعلم أنكَ إنما تعمل على السُّخرةِ.

وإن استطعتَ أن تجعل صُحبتكَ لمن قد عرفك بصالحِ مروءتكَ وصحة دينكَ وسلامةِ أمورِكَ قبلَ ولايتهِ فافعل. فإن الرئيس لا علم لهُ بالناسِ إلا ما قد عَلِم قبلَ ولايته. أما إذا وَلِي فكل الناسِ يلقاهُ بالتزينِ والتصنعِ وكلهم يحتالُ لأن يُثني عليه عندهُ بما ليس فيهِ. غير أنّ الأنذال والأرذال هم أشدّ لذلكَ تصنّعاً وأشدّ عليهِ مُثابرةً وفيه تَمَحّلاً. فلا يمتنعُ الرئيس، وإن كان بليغَ الرأي والنظرِ، من أن يَنزِل عندهُ كثيرٌ من **الأشرار** بمنزلةِ الأخيارِ، وكثيرٌ من **الخانةِ** بمنزلةِ الأمناءِ، وكثيرٌ من **الغدَرَة** بمنزلةِ الأوفياء، ويُغطَّى عليهِ أمرُ كثيرٍ من أهل الفضل الذينَ يصونونَ أنفسَهم عنِ الكيد والتصنّعِ.

وإذا عرفتَ نفسك من الرئيس بمنزلةِ الثقةِ، فاعزل عنهُ كلامَ الملَقِ، ولا تكثرنَّ من الدعاء لهُ في كل كلمة، فإنّ ذلك شبيهٌ بالوَحشةِ والغربةِ، إلا أن تُكلِّمَهُ على رؤوس الناسِ، فلا تألُ عمّا عظّمَهُ ووقّرهُ.

ولا يعرفنّكَ الرؤساء بالهوى في بلدٍ من البلدانِ ولا قبيلةٍ من القبائلِ، فيوشكَ أن تُحتاجَ فيهما إلى حكايةٍ أو شهادةٍ، فتُتّهمَ في ذلك.

فإذا أردت أن يُقبلَ قولكَ فصحِّح رأيكَ ولا تشوبنّهُ بشيءٍ من الهوى، فإنّ الرأي الصحيحَ يقبلُهُ منكّ العدو، والهوى يردّهُ عليكَ الولدُ والصديقُ.

وأحقُّ منِ احترستَ من أن يظُنّ بكَ خلطَ الرأي بالهوى الرؤساء، فإنها خديعةٌ وخيانةٌ وكفرٌ عندهم.

إن ابتُليتَ بصحبةِ رئيس لا يُريدُ صلاحَ رعيتهِ فاعلم أنكَ قد خُيِّرتَ بين خَلّتينِ ليس منهما خِيارٌ: إما الميلُ مع الرئيس على الرعيةِ، وهذا هلاكُ الدِّينِ. وإما الميلُ مع الرعيةِ على الرئيس، وهذا هلاكُ الدنيا، ولا حيلةَ لكَ إلا الموتُ أو الهربُ.

واعلم أنهُ لا ينبغي لكَ، وإن كانَ الرئيس غيرَ مرضيِّ السيرةِ إذا علِقت حبالُكَ بحبالهِ، إلا المحافظةُ عليهِ، إلى أن تجد إلى الفراقِ الجميلِ سبيلاً.

تبصَّرْ ما في الرئيس من الأخلاقِ التي تحبّ له والتي تكرهُ، وما هو عليهِ من الرأي الذي ترضى لهُ والذي لا ترضى. ثم لا تكابِرَنَّهُ بالتحويلِ لهُ عما يُحبّ ويكرهُ إلى ما تحبّ وتكرهُ. فإنّ هذه رياضةٌ صعبةٌ تحمِلُ على التنائي والهجر، فإنكَ قلما تقدرُ على ردّ رجلٍ عن طريقةٍ هو عليها بالمكابرة والمناقَضَةِ، وإن لم يكن ممن يجمَحُ بهِ عِزُّ السلطة. ولكنكَ تقدِرُ على أن تعينهُ على أحسنِ رأيهِ، وتُسدِّدَهُ فيه وتزينهُ، وتقوّيَهُ عليهِ، فإذا قَوِيَت منهُ المحاسنُ كانت هي التي تكفيكَ المساوئ.

وإذا استحكمت منهُ ناحيةٌ من الصوابِ كان ذلكَ الصوابُ هو الذي يُبَصِّرُهُ مواقعَ الخطأ بألطفَ من تبصيركَ وأعدلَ من حكمكَ في نفسهِ. فإنّ الصوابَ يؤيدُ بعضُهُ بعضاً ويدعو بعضهُ إلى بعضٍ حتى تَستحكِم لصاحبهِ الأشياءُ، ويظهرَ عليها بتحكيمِ الرأي، فإذا كانت لهُ مكانةٌ من الأصالةِ اقتلعَ ذلك الخطأ كلهُ. فاحفظ هذا الباب وأحكِمْهُ.

ولا يكونَنَّ طلبُكَ ما عند الرئيس بالمسألةِ، ولا تستبطِئْهُ، وإنْ أبطأ عليكَ. ولكن اطلبُ ما عنده بالاستحقاق لهُ، واستأنِ به وإن طالتِ الأناةُ منهُ. فإنك إذا

استحققتَهُ أتاكَ عن غيرِ طلبٍ، وإن لم تستبطئهُ كان أعجلَ لهُ.

ولا تخبرنَ الرئيس أن لكَ عليهِ حقاً، وأنكَ تعتدُّ عليهِ ببلاء، وإنِ استطعتَ ألا ينسى حقَّك وبلاءك فافعل. وليكن ما يذكّره بهِ من ذلك تجديدُكَ لهُ النصيحةَ والاجتهادَ، وألا يزالَ ينظرُ منكَ إلى آخرٍ يُذكّرهُ أوَّلَ بلائكَ. واعلم أن الرئيس إذا انقطعَ عنهُ الآخِرُ نَسي الأولَ، وأنّ الكثيرَ من أولئكَ أرحامُهم مقطوعةٌ وحبالهم مصرومةٌ، إلا عمّن رَضُوا عنهُ وأغنى عنهم في يومهم وساعتهم.

وإياك أن يقع في قلبك تعتُبٌ على الرئيس أو استزراءٌ لهُ. فإنهُ إن وقعَ في قلبك بدا في وجهكَ إن كنت حليماً، وبدا على لسانكَ إن كنتَ سفيهاً. فإن لم يزد ذلك على أن يظهر في وجهكَ لآمنِ الناس عندك فلا تأمنَنَّ أن يظهرَ ذلك للرئيس. فإنّ الناسَ إلى الرئيس بعوراتِ الإخوانِ سِرَاعٌ. فإذا ظهر ذلك للرئيس كان قلبهُ هو أسرعَ إلى النفورِ والتغيّرِ من قلبكَ، فمَحَقَ ذلك حسناتِكَ الماضية، وأشرفَ بكَ على الهلاك، وصِرتَ تعرفُ أمركَ مستدبراً وتلتمسُ مرضاةَ رئيسك مستصعباً. ولو شئت كنتَ تركتهُ راضياً وازددتَ من رضاهُ دُنُواً.

واعلمْ أنّ أكثرَ الناسِ عدواً جاهداً حاضراً جريئاً واشياً نائبُ الرئيس ذو المكانةِ عندهُ، لأنهُ منفوسٌ عليه مكانهُ بما يُنفَسُ على صاحبِ السلطة ومحسودٌ كما يحسدُ، غير أنه يُجترأ عليه ولا يجترأ على الرئيس، لأن من حاسديه أحباءَ الرئيس وأقاربَهُ الذين يشاركونهُ في المداخلِ والمنازلِ. وهم وغيرهم من عدوهِ الذينَ هم حُضَّارُهُ ليسوا كعدو الرئيس النائي عنهُ والمكْتَتِمِ منهُ. وهم لا ينقطعُ طمَعُهم من الظفَر بهِ، فلا يغفُلونَ عن نصبِ الحبائلِ لهُ.

فاعرف هذهِ الحالَ، والبس لهؤلاء القومِ الذينَ هم أعداؤكَ سلاحَ الصحةِ والاستقامة ولزومَ المحَجَةِ فيما تُسِرّ وتعلنُ. ثم روّحْ عن قلبك حتى كأنكَ لا عدو لك ولا حاسدَ. وإن ذكرك ذاكرٌ عند الرئيس بسوء في وجهكَ أو في غيبتِكَ فلا يريَّن الرئيس ولا غيرُهُ منكَ اختلاطاً لذلك ولا اغتياظاً ولا ضجَراً.

ولا يقَعَنّ ذلك في نفسك موقع ما يَكرِثُكَ، فإنهُ إن وقع منكَ ذلك الموقعَ، أدخل عليك أموراً مشتبهةً بالريبةِ مذَكّرةً لما قالَ فيكَ العائِبُ. وإن اضطركَ الأمرُ في ذلكَ إلى الجواب فإياكَ وجوابَ الغضبِ والانتقامِ وعليك بجوابِ الحُجةِ في حِلمٍ ووقارٍ. ولا تشُكَّنَّ في أن الغلبةَ والقوةَ للحليمِ أبداً.

ولا تتكلَمَّنَّ عند الرئيس كلاماً أبداً إلا لعنايةٍ، أو يكونَ جواباً لشيء سئُلتَ عنه. ولا تُحضرَّن عند الرئيس كلاماً أبداً لا تُعنى بهِ أو تُؤمَرُ بحضورِهِ.

ولا تعُدَّنَّ شتمَ الرئيس شتماً، ولا إغلاظهُ إغلاظاً، فإنّ ريح العزةِ قد تبسطُ اللسانَ بالغِلظةِ في غير سَخَطٍ ولا بأسٍ.

وجانِبِ المسخوطَ عليهِ والظنّين به عند الرئيس. ولا يجمعنّكَ وإياهُ مجلسٌ ولا منزلٌ، ولا تُظهرنَّ لهُ عذراً، ولا تثْنِيَنّ عليه خيراً عند أحدٍ من الناسِ. فإذا رأيتهُ قد بلغ من الإعتابِ مما سُخط عليه فيه ما ترجو أن تُلينَ لهُ به قلبَ الرئيس، واستيقنتَ أن الرئيس قد استيقنَ بمباعدتك إياهُ وشِدّتك عليهِ عند الناسِ فضع عذرهُ عند الرئيس واعمل في إرضائه عنهُ في رفقٍ ولطفٍ.

وليعلمِ الرئيس أنكَ لا تستنكفُ عن شيء من خدمتهِ. ولا تدَعْ مع ذلك أن تقدّمَ إليه القولَ، عند بعضِ حالاتِ رضاهُ وطيبِ نفسهِ، في الاستعفاء من الأعمال التي هي أهلٌ أن يكرهها ذو الدِّينِ وذو العقلِ وذو العِرضِ وذو المروءةِ، من وظيفة القتلِ والعذابِ وأشباهِ ذلكَ.

وإذا أصبتَ الجاهَ والخاصَّة عند الرئيس، فلا يُحدِثنَّ لكَ ذلك تغيراً على أحدٍ من أهلهِ وأعوانهِ، ولا استغناءً عنهم، فإنك لا تدري متى ترى أدنى جَفوةٍ أو تغيرٍ فتذِلَّ لهم فيها، وفي تلونِ الحال عند ذلك من العارِ ما فيهِ.

ليكن مما تُحكِمُ من أمركَ ألا تُسارّ أحداً من الناس ولا تهمِسَ إليه بشيء تُخفيهِ على الرئيس أو تعلنهُ، فإن السّرارَ مما يخيّلُ إلى كل من رآهُ من ذي سلطة أو غيرهِ أنهُ المرادُ بهِ. فيكونُ ذلك في نفسهِ حَسِيكةً ووَغْراً وثِقلاً.

وقد قيل: لا يواظب على باب السلطان إلا من يطرح الأنفة ويحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس ويكتم السرّ، فإذا وصل إلى ذلك فقد بلغ مراده.

alkhaznadarn67@gmail.com

المحتويات

مقدمة ٢

القسم الأول

إدارة الذات

استخدم عقلك ٣

ابدأ بنفسك ٤

حبب العلم إلى نفسك ٤

الحرص على ما ينفعك ٤

لا تصدق كل ما تسمع ٥

اعرف الابتلاء والبلاء ٥

اعرف الأصول والفروع ٥

كن حكيما ٦

أدب نفسك ٧

اعرف الله ٨

كن من ذوي الألباب ٩

حاسب نفسك ١٠

اغتنم الوقت ١١

لا تستهن بالصغير ١١

فرّق بين الدين والرأي والهوى ١١

استشر ذوي الألباب ١٢

القسم الثاني

معرفة الناس

محبّ المدح ١٣

الجبان والحذر ١٤

الحسود ١٤

الكذاب ١٤

الجاهل ١٤

الغاضب ١٥

المنان ١٥

المغرم بالنساء ١٥

الكريم واللئيم ١٦

الزاهد ١٦

الصابر ١٦

صاحب المروءة ١٧

العاقل ١٨

السعيد والشقي ١٩

الحازم ١٩

المتواضع ١٩

القسم الثالث

إدارة المال

اطلب الرزق ٢٠

حصّن المال ٢٠

اعرف قدره ٢٠

القسم الرابع

إدارة الكلام

فضل الصمت ٢٣

احذر الهزل والمراء ٢٤

كن مستمعا جيدا ومجيبا محسنا ٢٤

القسم الخامس

إدارة الصداقة والعداوة

أدب الصداقة ٢٦

مؤاساة الصديق ٢٧

اختيار الصاحب ٢٧

احذر جليس السوء ٢٩

أدب العداوة ٢٩

القسم السادس

إدارة البلاد

صفات لا تليق بالرئيس ٣٢

إدارة الأعمال والساسة ٣٣

حق الرئيس المقسط ٣٥

ماذا على المبتلى بصحبة الرئيس ٣٦

alkhaznadarn67@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إن مع العسر يسرا

2014-1435

alkhaznadarn@hotmail.com